بســـــتان العاشـــــقين

مجموعة قصص قصيرة

فيصل عبد الحسن

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى في دار الشؤون الثقافية ـ بغداد 2016
الطبعة الثانية مطبعة ونشر سليكا ـ الدار البيضاء 2022

بستان العاشقين

مجموعة قصص قصيرة

فيصل عبد الحسن *

بستان العاشقين

" لا تذهب للبستان بدوني
منتشيا بالرقص تذهب
في البستان سأرى عينيك
وفي عينيك سارى البستان
انت ياروحي
لا تذهب بدوني.
وتدخل البستان
ضاحكا مع احبائك
أتوسل إليك
لا تذهب بدوني ..
فلماذا سانظر الى قمر آخر في بستان العاشقين ؟
أو أبحث عن شمس أخرى ..
فما سوف أراه منك
سيكون كافيا لي.
ويغنيني عن كل الشموس والأقمار والبساتين "
جلال الدين الرومي

الأهداء

" إلى ولدي محمد..

1

طعام الأُسود...

شاءت الأقدار أن احصل على عمل – بعد بحث طويل- في حديقة للحيوانات ، لم تكن عندي الخبرة اللازمة للعناية بأي نوع من الحيوانات، فقد كنت في طفولتي لا أطيق القطط وأخاف الكلاب، ويشتد هلعي إذا سمعت من يقول أن في الدار فأراً، ولا يهدأ لي بال حتى أتأكد أنه تم القضاء على ذلك الفأر الذي هدد أمننا المنزلي، واعتقدت في البداية أنّ العمل في حديقة الحيوانات لا يتعدى النزهات اليومية طوال شهر، وخلال ذلك يمكنني قراءة كل الكتب التي لم أنجز قراءتها بعد، والتي أكتريها بالدين من صاحب الكشك القريب من مسكننا، وفي نهايته أقبض راتباً يكفيني ذل السؤال، والهروب المستمر من الدائنين في هذه المدينة البشعة، التي يعيش نصف أهلها على أعمال وهمية، وتقديم خدمات للسائحين، وإمتاع أوقاتهم بتقديم ألوان الفلكلور أمامهم .

قدمتني السكرتيرة إلى مدير الحديقة. كانت صغيرة، فاتنة، ولها لفتة ظبي وعينا يمامة، ويبدو إنها أوضحت للمدير سبب مجيئي للحديقة قبل دخولنا عليه، فقد حد جني المدير بنظرة متفحصة ثم رأيته يشيح بوجهه عني، وحدست بخبرتي إنه سيعبر لي عن رفضه، ويعتذر عن تعييني في الوظيفة الشاغرة، فاندفعت صوبه أرجوه أنْ يعطيني هذه الفرصة، وكررت أمامه إني سأبذل ما في وسعي من جهد في هذا العمل وبمنتهى الأمانة والإخلاص ، نظر إلي المدير من جديد كأنما ليتأكد من صدق توسلاتي، وبعد أنْ فكر قليلاً بدا وكأن قلبه رق لحالي، لكنه هز رأسه متشككاً في قدرتي على تأدية متطلبات الوظيفة، وسألني أنْ كنت قادراً على العيش مع الأسُود ؟ !! وهذه هي حقيقة العمل المطلوب، كما وضح لي ... وردد : العيش مع الأُسود، وأُسود معقدة تكره حتى نفسها، لأنها لم تذق اللحم الحقيقي، منذ تشرفت بالعيش معنا .. (وضحك)، فأجبته : أنني أستطيع ذلك ، وهذا هو العمل المناسب الذي كنت أبحث عنه، قال المدير بنفس لهجته الساخرة: (ربما سنطلب منك يوماً تنظيف أسنان الأسُود بالفرشاة ومعجون الأسنان !!)

فكرت : (طول عمري لم أسمع أنّ أحداً نظف أسنان أسد في حديقة حيوان أو سيرك بفرشاة ومعجون أسنان ..)

وتساءلت : ربما كانوا يفعلون ذلك دون أن أعرف، فمن يعرف أسرار هذه المهن الصعبة ؟
لم أستطع التراجع عن استعدادي للعمل بالرغم من جسامة المخاطر الموعودة، وإحساسي ببدني يرتجف فرقاً منذ الآن . حقيقة كنت بحاجة ماسة للعمل، وأضفت لتلك الحاجة الاستحياء من إظهار خوفي أمام السكرتيرة الصغيرة الحلوة، ومديرها الذي لم يترك وسيلة لم يستخدمها لتخويفي من العمل إلا وتحداني بها .. وأخيرا أمام صمودي البطولي الكاذب !! هز المدير رأسه موافقاً على تعييني كمساعد مُطْعِم للأسود – تحت التجربة – فكرت في نفسي : إنني لم أجرب إطعام أسود من قبل ... لكنني لم أنبس بكلمة، وخرجت من غرفة المدير مرتبكاً أتبع السكرتيرة لتسجيل بياناتي في مكتب شؤون العاملين المجاور، وأنا أفكر بطريقة تجنبني هذا العمل الخطر، وسأبذل أي جهد لأجد من يتوسط لي لنقلي إلى عمل آخر في الحديقة غير هذا العمل، والمهم الآن إنني وضعت قدمي في هذا المكان، ووجدت عملاً في مدينة العاطلين هذه، وبعد أنْ سجلت بياناتي أصطحبني أحد العاملين في جولة تعريفية بأقسام الحديقة، فلاحظت الأسود كسيرة النفوس مهيضة العزة، ولا تبدو عليها مهابة الأسود التي نراها عادة في الصور الفوتغرافية وأفلام التلفزيون .
عرفت من العامل أنَّ عملي يتلخص بتقطيع شرائح اللحم، لتقديمها إلى الأسود والنمور واللبوءات مرتين في اليوم، المرة الأولى في الصباح، والثانية قبل الغروب بقليل، فكرت في نفسي: (هذا أمر بالغ السهولة !! وسأقضي بقية يومي متنزهاً في الحديقة بين قمرات الطيور والعصافير الأفريقية الملونة وحظائر الزرافات وأحواض الدلافين، وربما سأحظى بين الحين والآخر بقطعة لحم أحملها عند عودتي من العمل إلى الدار، لتعدها زوجتي لنا كأفضل ما أكلناه طوال الشهور الستة الماضية .
في اليوم الأول من أيام عملي اكتشفت أنَّ كميات ضخمة من اللحم المستورد تجلب بالسيارات المبردة، وتحفظ في برادات القسم الإداري التابع للحديقة، وأوصاني – المُطْعِم الأول – أنْ أقتطع الأجزاء الطيبة، وفيرة اللحم من الذبائح مع أكبادها وكليها، وأحفظها في كيس نايلون، وأخبرني تلميحاً إنها حصة مدير الحديقة ونائبه ومد راء
الأقسام !! وعلي أنْ أحملها إلى سياراتهم بعد أنْ يخرج العمال الى بيوتهم . فكرت بقطعة لحم أهربها إلى خارج الحديقة أيضا لتفرح بها زوجتي، وسأعطي

منها لجيراننا، الذين وقفوا مع عائلتي في فترة بطالتي التي عانينا منها طويلاً، وقدموا خلالها لنا مختلف الخدمات، والمساعدات العينية بالرغم من فقرهم، التي كانت تذكرني وزوجتي، إنَّ الخالق سبحانه لا ينسى عباده، فتترقرق الدموع في عيني زوجتي أولاً ثم تنتقل العدوى إليَّ، ويحرص كل منا أنْ لا يكتشف الأبناء سرَّ هذه الدموع المنهملة بغزارة، فنصير محط سخرية أكبر أولادنا، الذي غالباً ما يعيرنا بأننا نحول أحداث الحياة إلى أفلام هندية، ونتباكى عليها!! وحاولت أن أتخيل إمارات العرفان على وجوه الجيران، وكل واحد منهم يستلم حصة من ذلك اللحم الطازج، الذي لم أر أفضل منظراً منه في كل مجازر المدينة، وأوشكت على قول : أنَّ لا شكر بين الجيران !! لقد عملنا الواجب لا أكثر ... وتخيلت كلمات الشكر تنهال عليَّ ..

انتعشت الآمال في نفسي بحياة كريمة، وربما لأول مرة في حياتي، وشعرت أنَّ ثمة أملاً حقيقياً في عيش حياة عائلية مستورة منذ هذا اليوم، وقد أمضينا فترة طويلة من أعمارنا في الفقر والحاجة، وقد قست الحياة علينا كثيراً في بعض الأحيان، واضطررنا للاقتراض من هذا وذاك، ولم نتوقع يوماً حسناً على الإطلاق، لكننا لم نفكر بيوم أبعد من يومنا، كنا نفكر بتدبير مؤونة يومنا فقط أما الغد أو لماذا نحن، وغيرنا بهذه الحال المزرية، فذلك في علم الأقدار التي أتت بنا إلى هذا الوجود .. عندما شاهدني مدير المخازن الأصلع أتجول كثيراً قريبا من البرادات، ولصفة الطمع بالحصول على شيء من اللحم تشع في عينيَّ !! ولقد رآني كلما ذهبت بعيداً إلى أطراف الحديقة وعدت مجدداً إلى موقع البرادات، كأنما كان هناك خيط لا يُرى يقيدني بالبرادات، وكلما ابتعدت سحبني من جديد إليها ذلك الأمل، وأنا أتخيل وجوه جيراني عندما يستلمون مني حصتهم باللحم الذي سأجلبه معي، وعندما رآني المدير أقترب من جديد ناداني، وسألني عن هدفي من هذه المسيرة المكوكية ؟!

فأخبرته بكثير من الارتباك، والأدب المفتعل إنني العامل الجديد معّين في الحديقة، ولا أعرف أين أقضي حاجتي، وكان عذرا هائلا أخترعته في ذات اللحظة، فنظر صوبي ووجهه ينبئ بتهديد ووعيد، مشيرا إلى جهة الحمامات، التي تستخدم أيضا لأستحمام الحيوانات، وطلب مني أنْ أبتعد عن البرادات، ولا أعود إليها إلا حين يصطحبني رئيسي المباشر ! كانت أقواله أوامر، وربما كانت ستتبخر أحلام أحد غيري بعد هذه التهديدات، ولكن هيهات أن يحدث هذا لي.. انتعشت آمالي مجدداً بعد ساعة، حين رأيت مدير المخازن الأصلع يغادر

الحديقة صوب الخلاء المؤدي إلى الخارج .. وعندها فقط شعرت أنَّ الفرصة قد حانت لحصولي على اللحم أكثر من أي وقت آخر، اتجهت على الفور إلى قسم البرادات طالباً حصة اللحوم الخاصة بقسم الأسود، فأخبرني الموظف أنَّ الوقت المحدد لإعطاء وجبة الطعام لها لم يحن بعد، لكنهم بعد أخذ ورد سلموني الكمية على مسؤوليتي ..

حين قلبت ما استلمته منهم شعرت بالغثيان، والقرف فلم يكن باللفافات اللحم ذاته !! الذي قمت بنفسي بتقطيعه في الصباح !! بل وجدت مزيجاً غريباً من أطعمة شتى تم خلطها بحذق، كالفول والأرز، وفتات الخبز المداف ببقايا أمعاء مثرومة، وشحوم وجلود، وقد رش ذلك الخليط العجيب بدم الذبائح، وأخبروني أن ما معي هو طعام الأسود !! وعندها فقط عرفت لماذا بدت أسود الحديقة كسيرة النفوس، ولا تطيق ذواتها، مخلوقات مسكينة لا حول لها، ولا قوة، وهي على وشك الانهيار في كل لحظة بالرغم من أشكالها المهيبة وزئيرهاالمخيف ...

2

ردني إلى بلادي ...

وضع حقيبة السفر الصغيرة على السرير، وأخذ يرتب لوازم رحلته البعيدة، فكر مع نفسه: بعد كل هذه السنوات من الاستقرار.. ستكون رحلته طويلة ... وأخذ يتفحص كتب مكتبته الضخمة، التي أخذت مكانا واسعا من الغرفة، لقد جمع كتبها كتابا.. كتابا، ولكل كتاب فيها له قصة معه، يتذكرها ولن ينساها ما دام حيا، وجميع أصدقائه من الكتاب وغيرهم، الذين زاروه في بيته أعجبوا بمجموعات الكتب التي جمعها، لكن عندما دقت ساعة السفر العظيمة، شعر بالحيرة تنتابه في اختيار الكتاب الذي سيصاحبه، وجاءت زوجته أثناء ذلك تحمل له قميصا مكويا طلبه منها... نظر في عينيها وشعر أنه بالرغم من سنوات الغربة، التي عاشها مع هذه المرآة بعيدا عن وطنه، فإنه لم يشعر بالسأم أو أذبلت السنوات في عينيه جمال قدها ورشاقته، وتلك العلامات المميزة في وجهها، والبارزة بارتفاع الفودين والتواء الغمازتين، الباديتين كوردتين صغيرتين مذهلتين، وقد خلب لبه وجهها الضاحك، لحظة التقاها أول مرة في ذلك اللقاء الثقافي في مدينة الغربة الجديدة عليه، ولا تزال تلك

العلامات في وجهها تثير فيه رغبات عميقة، لا تنتهي، وتدفعه كل لحظة في الاستزادة من ضمها إلى صدره وتقبيل فوديها، والإغفاء على ساعدها البض، وفكر : هل يحتمل فكرة الابتعاد عنها بالعودة إلى وطنه وأهله ؟ وقد رفضت فكرة العيش معه في وطنه، تاركة أهلها ووطنها... سمعها تقول له : أتريد شيئا آخر ؟!

ابتسم وقال: إنه يبحث عن كتاب يأخذه معه إلى وطنه، ويذكره بكل ما عاشه معها..

قالت، وهي تحرك يدها قريبا من صدرها المتوثب، وترمقه بعينيها الجميلتين بنظرات يعرف مغزاها، لتذكيره بالذي كان بينهما، طوال السنوات الماضية من عشق وكلف ومحبة: - أتتركني أختار لك ؟!

قال مظهرا لا مبالاته، محاولا تخفيف تأثيرها الأنثوي عليه:

- أتستطيعين ذلك فعلا ؟!

اقتربت منه، ومدت يدها إلى خزانة الكتب، أحس صدرها قريبا منه، وشعرها يمس أرنبة أنفه، وأنفاسها تلفح وجهه وعطرها يملأ صدره، وانعكست في عينيه ألوان وورود ثوبها، وفكر مع نفسه: إنها تعبث بي. ولا تقبل أن تصحبني إلى بلدي، لأنه عالم مجهول بالنسبة لها، ولا يمكنها أن تغامر بمستقبل طفلينا الدراسي بنقلهما إلى مدارس بلدي، التي تختلف فيه مناهج التعليم عما ألفه الطفلان في مدارس بلادها.. أجل إنها تعبث بي، وهي بعد عشرتنا الطويلة تعرف نقاط ضعفي ...

أخرجت كتابا من بين صفوف الكتب، ونظرت صوبه: أزهار الشر.. لشارل بودلير !! إنه رفيق جيد في رحلة مليئة بالذكريات الحلوة كرحلتك! !

وخلال لحظة واحدة تذكر أول مرة التقاها منذ عدة سنوات في احد الملتقيات الثقافية.. تحدثا وقتها عن الشعروالجمال، وكانت عيناها تقولان له شعرا حرك في روحه الحزينة، ذكريات الأهل والوطن المبعد عنه بسبب معارضته لما كان يحدث فيه من مصائب بدعاوى الثورية والتقدم، وكان هو نفسه سيكون موضوعا لقصة من قصص الضحايا، لو لم يسرع بالإفلات من شبكة الموت، التي أخذت تضيق على عنقه، ويسافر إلى خارج بلاده قبل أيام قليلة من صدور أمر إلقاء القبض عليه !!

وتذكر أنها في تلك الفترة كانت تحاول كتابة الشعر: رافقته في ذلك الملتقى بزيها الوطني، فتاة مكتملة الأنوثة، بشفتين كرزيتين وفودين ممتلئين،

وعينين واسعتين تذكره بعيون البدويات في بلاده، وثمة لصفة مشعة فوق شعرها الكستنائي، ولفت نظرها، إلى أنها تبدو كفتاة كبتت عواطفها منذ ألف عام، فضحكت مسرورة، وفي تلك الليلة التي لا ينساها شعر أنه يود لو أن يأخذ كفها، ويحلق بها في سماوات لا متناهية البعد، ويصيح بملء صدره ليسمع العالم: إنه وجد ما كان يبحث عنه في هذه الدنيا !!

قرأا تلك الليلة قصائد بودلير والمتنبي والسياب، بصوت مشترك عذب، وشعرا بالإشفاق على شاعر الماغوط، وهو يمزق إشعاره على أرصفة الموانئ البعيدة... كان يرى آثار الدموع في عينيها بعد أن يكمل قراءة قصيدة من القصائد، وكانت قشعريرة باردة ترجفه، وهو يرى أنه يجلس، وفمه على بعد بوصات قليلة من أجمل شفتين رآهما في حياته ، تطربه الدموع التي يراها في عينيها، وصارت منذ تلك الليلة الحلم العجيب الذي يصاحبه كل ليلة، فيحول حزنه على أهله، وأصدقائه، وفراق وطنه إلى انتشاء، وانشراح يذهب عنه كآبة الوحدة، والشعور الممض بأنه بلا صديق أو قريب، فقد صارت بمضي الأيام أهله وأقرب أصدقائه، وما إن يدير أرقام هاتفها، حتى يسمع صوتها الحبيب الذي أخذ يعوضه كل ما فقده في حياته، وكان كلما مس أصابعها حينما يلتقيان في غفلة عن الأعين، يشعر بالارتجاف يشل كل خلية من خلاياه، ويسكره لوقت طويل..

نعم، ارتجفت كفه، وهو يأخذ ديوان الشعر من يدها، وتذكر: جان دوفال.. حبيبة الشاعر بودلير، ورأى ارتجافة أصابعها النحيلة البيضاء أيضا، وعندما رفع عينيه والتقت بعينيها، رأى اللمعة الغريبة ذاتها لمعة الرغبة القديمة، والأشواق اللامحدودة: إذن هي تفكر بذات الموضوع الذي كان يفكر فيه !! لقد تذكرت بالفعل جان دوفال أيضا، وربما تذكرت تحليليهما العميق للعلاقة، التي كانت بينها وبين الشاعر، ووضح لها وقتها، مدى الاستعباد الذي كان بودلير يحسه اتجاهها... تركت مكانها القريب منه، وجلست على كرسي يستعمله عادة بعد الظهر، عندما يرغب باسترخاء لذيذ لقراءة الجرائد، ورآها تضع ساقا على ساق، فيتيح لها ثوبها الواسع تلك الحركة المثيرة، معطية صورة وامضة لأنوثة مفعمة بالإغراء والحزن اللذيذين اللذين يظهران ضعف المرآة مقرونا بجمالها الطبيعي، وأستعدادها للبذل حتى الموت من أجل أن تبقى في قلب وعقل حبيبها، رمقته أثناء ذلك بعينيها الخبيرتين لحدس ما يجول في رأسه من رغبات، وأفكار، وتمرد على آسرها له، فشعر بالثورة تمور داخلها

وتتضاعف، لأنها بحسها الغريزي عرفت أنها تخسر شيئا راهنت على أن يبقى ملكها إلى نهاية العمر، وسمعها تهمس بصوت حزين :

- أرجو أني لم أغضبك طوال السنوات التي عشناها معا...

وتمتم الرجل، وهو يحاول أن يخفي ما ارتسم على وجهه من أمائر الحيرة، والشرود، وهو يحاول البحث بشكل أعمى في صفحات الكتاب الذي يمسكه بكفه:

- لا، أبدا...

وصمتا لحظات، ثم سمعها تقول:

- منذ سقوط الدكتاتورية في بلادك، وأنت تستمع إلى أغنية فيروز «ردني إلى بلادي!! »

وسمعها تغني بصوت جميل مقلدة صوت فيروز:

" ردني إلى بلادي ...
مع نسائم الغوادي ...
مع شعاع تغاوى
عند شاطئه ووواديه...
وارم بي على ضفاف من طفولة البهاء..."

كانت زوجته تغني بصوت حزين، والرجل يعد ملابسه قطعة قطعة: قمصان وسراويل ومنشفة وفرشاة أسنان وملابس داخلية. كانت غرفته بعد الظهر باردة، والضوء لا يدخل إليها إلا عبر الباب، وكانت المرأة على الكرسي الهزاز لا تصدر عنها حركة، لكنها كانت تدندن بكلمات الأغنية، وفجأة قطعت الغناء لتسأله:

"- هل تبقى هناك فترة، وتعود إلينا مرة أخرى ؟ ..."

"- لا أعتقد أني سأفعل ذلك، سأنتظرك في بلادي – بلادنا – قال مصححا ثم أكمل مستدركا :

لقد تركت وكالة رسمية، ولك حق التصرف في كل شيء لنا هنا ..."

صمتا لحظات، وسمعها تقول متوسلة:

"- ألا تنتظر قدوم طفلينا من المدرسة لتودعهما ؟!"

فكر الرجل مع نفسه: إنها تعرف أن الطفلين هما نقطة ضعفي المدمرة ... أجاب: "- لا أحب لحظات الوداع، إنك تعرفين ذلك..."

"- لكنك تعرف مقدار تعلقهما بك ..."

وسمع في نبرات صوتها ارتعاشا يعرفه تماما، ويعرف ما سيتبع هذا الارتعاش من دموع وآهات، وانتظر أن تشهق باكية، لكنها لم تجهش بالبكاء كما اعتقد:

"- ستخبرينهم عن عودتي إلى وطني.. وانتظاري لهم هناك.."

ضحكت هازئة، وهي تهز يدها استهجانا :

"- لن أحدثهم عن ذلك أبدا، فهم في سن لا تسمح لنا بأن نحملهما فيها هموم الكبار.. ألا ترى ما نشاهده من مناظر الموت والأنفجارات، والقتل في بلدك لا أريد أن أقلقهما عليك.. سأخترع لهما قصة عن رحلة طارئة لك إلى بلد سعيد تكثر فيه النوارس، وتغرد فيه البلابل طوال الوقت...

رحلة عمل لا غير ..."

لم يكن الرجل موافقا، لكنه كان يؤمن بالزمن، ويؤمن أن قناعاتها ستتغير، وحين يرسل لها أنباء طيبة عن بلاده وأهله، فإنها ستتبعه بعد أن ينهي الأطفال سنتهما الدراسية الحالية ...

وقطعت المرأة أفكاره بقولها بلهجة جادة:

"- لو أعرف سببا واحدا معقولا لكل هذا..."

ورأى الرجل القفص الصغير الفارغ الذي أطلق طائره قبل أيام معلقا في الزاوية البعيدة من الفناء، ولا يزال ثمة زغب بين مربعات سلك القفص الضيقة:

"- صدقيني، ليس لدي ما أقوله من أسباب غير التي أخبرتك عنها.. ".

"- كل الذي قلته غير مقنع، ويمكنك أن تزور بلادك، وأهلك حين تهدأ الأمور لفترة من الزمن، وتعود إلينا بعد ذلك ولا أصدق أنك لا تستطيع الكتابة، وأنت معنا، وتسمع في التلفاز أخبار المصائب التي تحدث في بلادك...

والصعوبات التي يواجهها الناس هنا !!"

"- هذا هو الواقــع ..."

اقترب الرجل من خزانة الكتب، وأخرج من دولابها خارطة كبيرة ملونة لبلاده، صاحبته في غربته، وأخذ يثنيها عدة مرات، وبعد أن أصبحت بحجم جيب سترته أخفاها فيه، وقال:

" سأذهب الآن..."

ومد يده للسلام عليها.. لم تقف أو تمد يدها إليه، ورأى الدموع تسفح على خديها، ثم سمعها تتمتم غاضبة :

"-امرأة أخرى وراء كل هذا الخراب.. غريزة الأنثى تقول لي ذلك ..."

تنهد الرجل بضيق وسحب يده من الفراغ، وتناول حقيبته من فوق السرير، ونظر إلى زوجته مشفقا، قبل أن يترك الغرفة للمرة الأخيرة، ورآها تنشج باكية، وتغطي وجهها بكفيها، ورأى خاتم زواجهما يلصف بالضوء في إصبع كفها.. شعر بصدره يضيق، وفكر أنه إذا بقي كذلك، فإنه سيضعف، وفي النهاية وككل مرة يركع أمامها، ويعانقها ويمسح دموعها بقبلاته.. وتنتهي مشاريع سفره في غرفة النوم !! أخرج من صدره آهة محبوسة، وقال هامسا:

- " وداعا.. " وخرج من الغرفة إلى الباحة، وغادر البيت مسرعا وهو يسمع صوت أولى جهشاتها الباكية، لكنه لم يلتفت إلى الوراء هذه المرة !!

3

" بستان الذكريات "

في الليلة السابقة تحدث أفراد عائلتي كثيرا عن الموت والموتى، ولن أنسى ما قالته أختي الكبيرة عن ميتة رأتها في شبابها، وكانت تعرفها قبل أن تموت، وبدت وهي ميتة أكثر جمالا، وإشراقا منها وهي حية، فقد ماتت المسكينة بعد ولادة متعسرة، وقد أخبرتها امرأة مسنة عند خروجها من بيت الفقيدة، وهي مستغربة إشراق وجه الميتة، إن من تمت أثناء الولادة يدخلها الله تعالى جنته، غافرا لها ذنوبها إكراما للحياة الجديدة، التي جاءت بها إلى الدنيا، وهذه القصة، وغيرها مما دار الحديث حوله من قصص الموت، جعلني أتوجس في هذه الساحة – مكان عملي – التي أعرف أنها منذ زمن بعيد مسكونة بالأشباح وأرواح الموتى، ولن أنسى ما قاله أخي الطالب في كلية الطب، مشاركا في حديث الموت ذاك، وقد وصف الموتى بأسلوبه التهكمي، وهو ينقل لنا مشاهداته من قاعات دروس التشريح، وصالات العمليات، وأروقة المستشفى، بأنهم جمادات من لحم طري، مصنوعين على هيئة بشر، ولكنهم ليسوا بشرا، كما أنهم ليسوا جمادا ولا حيوانا ولا أي شيء آخر،

وهذه الأجساد الميتة، التي لها صورة الإنسان، لها هيبة، ومخافة غريبة، تجعلنا نكره البقاء معها تحت سقف واحد، لليلة واحدة، حتى لو كان أصحابها قبل أن يموتوا من أقرب المقربين إلينا، وأعزهم إلى قلوبنا، قالت أختي الأصغر (المدرسة) هكذا أراد الله سبحانه أن يفرق بين عالمين، عالم الأحياء وعالم الأموات، وأن يجعل الأحياء فوق الأرض، والأموات يقبرون تحتها، وقلت في نفسي، ولكن أن يظهر الأموات فوق الأرض بعد موتهم، فهذا هو الشيء المخيف، الذي يخافه الجميع، وأنا أكثرهم خوفا من هذا الأمر الشنيع... وعند هذه النقطة من التفكير لمحتها، قريبا من الساحة وما كنا نسميها "حديقة العشاق... سابقا"، متجهة صوبي.

الغروب يجيء سريعا في هذا الفصل من السنة، وكلما هبت الريح تساقطت الأوراق الصفراء، وتجمعت عند محاور الرصيف، والتواءاته في كتل كبيرة، لا يستطيع الهواء دفعها، لم يكن أحد عند المصطبة الوحيدة، المظللة بشجرة يوكالبتوس ضخمة.. أعرف أن المكان كان لالتقاء العشاق، ولكن ذلك كان قبل ثلاثين سنة مضت، عندما كنت صغيرا أساعد والدي في بيع زجاجات الكولا في هذه الساحة، قبل أن يموت أبي يرحمه الله، وبقيت أواصل العمل وحدي، وقد تحولت الساحة بعد ذلك إلى مكان لتجمع صباغي الأحذية والمتسولين، وأنفض العشاق إلى مصائرهم. كانت الفتاة ترتدي زيا قديما لبسته الفتيات المراهقات، قبل ثلاثين سنة: تنورة ذات أكمام وفانيلة برقبة طويلة، ونظارة تحمي عينيها من أشعة الشمس، خلعت نظارتها الملونة ووضعتها في حقيبتها الجلدية، وأخذت تسرح نظرها في الساحة أمامها. انتبهت إلى وجوده لأول مرة. كان وجهها مشرقا وثمة غمازتان على خديها ونظرة عميقة آسرة في عينيها. أومأت له بيدها، فشعر بقلبه يخفق، اقترب منها. سمعها تقول بصوت ناعس، وكأنها على وشك التثاؤب والإغفاء:

" ألديك شيء أشربه.. العطش يكاد أن يصرعني.."

أجابها: "أجل لدينا كوكا كولا.. "

قالت باسترخاء مبالغ فيه: كوكا كولا ؟ عظيم جدا.."

تركها ليحضر لها قنينة مبردة من الكوكا، سألته بنفس الصوت الناعس:

"ألم يحضر إلى هنا شاب يرتدي بدلة بيضاء جارلستن، ويضع على صدر سترتها وردة حمراء كبيرة، " ثم أكملت ضاحكة " أنه يبالغ كثيرا باختيار ملابسه !!.. "

وكاد أن يضحك، كأنما سمع نكتة أراد أن يقول لها: أن الشباب توقفوا عن لبس هذا الموديل من الملابس – جارلستن – منذ مدة طويلة، قالت مؤكدة : "وله سالفان طويلان، ويترك شعره الأسود حسب المودة الجديدة مرسلا إلى الخلف ! "

كاد هذه المرة بصدق أن يشهق ضاحكا، وهو يعتقد يكلم فتاة مجنونة، أو أنها تقول كل ذلك لتسخر منه، أو تريد العبث به لأمر في نفسها لا يعرفه، قال لها بلهجة ساخرة: لقد توقف الشباب عن تربية سوالفهم يا آنسة ! "

تركها، وعاد إليها بعد قليل وقد أحضر معه زجاجة كوكا مبردة، فتح غطاءها وناولها، أخذت منها جرعة طويلة ، وقالت وهي تأخذ نفسا عميقا بعد تلك الجرعة العظيمة: "إني عطشـــة كما ترى ... "

وأخذت تشرب ما تبقى في الزجاجة بشراهة الظامىء، وحدق في وجهها، وخمن أنها في العشرين من عمرها : وردة منداة، وقد اسبغ عليها الغروب الخريفي، والملابس البيضاء القديمة، التي ترتديها جوا من السحر والغموض، وشم عطر ورد الياسمين ينثال من ملابسها، وشعرها وينتشر في الساحة، ويملأ رئتيه.

اختلطت اصوات السيارات المارة بأصوات زقزقة العصافير وهديل الطيور، التي كانت تتهيأ لقضاء ليلتها في أعشاشها بين أغصان الأشجار القريبة، ونسى قصص الموت المرعبة، وأخذ يفكر بهذه الفتاة المجنونة، التي سيتأخر بسببها عن العودة إلى البيت، قبل حلول الظلام، وهي تبدو مستهترة تماما ولا تخاف من المتسكعين، الذين سيحلون بعد قليل في الساحة، والذين أغتصبوا قبل شهور فتاة بعمرها كانت تعمل خادمة في احد بيوت الحي القريب من الساحة، قالت له وقد تركت قنينة الكوكا الفارغة في يدها: كنا نلتقي هنا كل اسبوع مرة" ثم أكملت بصوت هامس خجول: "كان المكان يزدحم في هذا الوقت بالعشاق" ابتسم لها وهو يرمقها متعجبا من صراحتها، وفكر "انها ربما كانت بائعة هوى وتريد الأيقاع بي، ولكنها بائعة هوى -فيما يبدو -لا تزال

جديدة على هذه الحرفة ": "عندما كنت صغيرا، وأجيئ مع أبي لأساعده هنا، كنت ارى أفواج العشاق، لكن مجيئهم توقف بعد أن منعته الشرطة، عندما قتلت فتاة شابة على هذه المصطبة، التي تجلسين عليها بيد ابن عمها الغيور.. " واعتقد أن الفتاة غريبة الأطوار ستخاف من المصطبة، لكنها لم تعر الموضوع اهتماما كبيرا، فأكمل : " لقد تفرق العشاق بعد ذلك، فيما يبدو كل واحد منهم إلى مصيره ".

وتمتمت مجددا: "من فضلك أعطيني زجاجة كوكا أخرى، ولا تحدثني عن الفتيات الميتات والعفاريت.. فإن روحي مملوءة بالرعب منهم طوال السنوات الماضية، وفمي جاف واشعر بعطش لا حد له.. كأني مثقوبة.. أشرب من هنا، واشعر بعطش عجيب من هناك !! ".

وأشارت إلى فمها المزموم، ومن دون أن يتكلم جلب لها قنينة أخرى وفتحها، وفي الساحة أمامهما كانت سيارات قليلة تمر، وثمة خفافيش كثيرة تخطف هنا وهناك، وتناور فوق رؤوس المارة، وبين أيديهم وأمامهم، وفي أحضانهم أيضا، ورأى أسفل المصطبة كومة أوراق شجر ذابلة، وقرب سياج الحديقة سفت أوراق متساقطة أخرى، كثيرة وكلما هبت نسمة ريح.. أخذت الفتاة الزجاجة بيد مرتجفة، وشربت جرعة طويلة أخرى، سألها :

"يبدو أنك قطعت مسافة طويلة راكضة لتصلي إلى هذه الساحة؟ "

أنزلت الزجاجة عن فمها، ونظرت صوبه بعينين حزينتين مرعوبتين:

"أجل، ركضت كثيرا، لقد قدمت من الصحراء ... وشهقت ضاحكة، وتمتمت: صحراء ورملها في كل مكان، إنه من ذلك النوع الدقيق، الذي يلصق بالملابس والشعر وجفون العينين، وأخيرا عندما وصلت إلى هنا لم أجده بانتظاري كما وعدني !! ".

صمتت قليلا، ثم أكملت:

"أتعتقد أن كل هذه المتاعب، التي أتجشمها كل عام، وفي هذا الموعد بالذات يستحقها ؟ "

شعر بالحرج والإرباك، وقال في نفسه: "لقد بدأت تخلط الكلمات ببعضها ! " لكنه جاملها قائلا: "ومن هذا الذي تنتظرينه ؟!" قال لها ذلك، وكأنه يقول لها: "انني موجود لأحل مكانه، ألا تملكين عينين

فترين ؟ " وكأنها فهمت ما يرمي إليه، وحدقت بعينيها الواسعتين بوجهه مباشرة، وقالت ولصفة ضوء تضيئ موقيها وابتسامة ساحرة تستدق على شفتيها : " ألم يأتك أحد ليسأل عني ؟ ! "
ضحك: "إنك تعبثين، لم أر أحدا يرتدي الملابس القديمة التي وصفتها، وهذه الساحة صارت كما ترين مهجورة إلا من عابري السبيل والشحاذين".
فجأة قالت متوسلة: " أتصدقني القول ؟ "
" سأحاول "
"كم يبدو عمري ؟ "
"قمر زمانك.. لم تتجاوزي العشرين بعد .. "
شهقت ضاحكة من مديحه: "إنك تبالغ، أنا أكبر من هذا العمر، أعطيني قنينة ثالثة من فضلك. ما أشد عطشي.."
وكلما تحدثت الفتاة عن ثقوبها المسببة للعطش، اجتاحته قشعريرة باردة، وأخذت تسري في عموده الفقري، كتيار كهربائي، واختنق الهواء في صدره، وارتجفت يداه رغبة بها وشوقا لملاطفتها.
هزت نسمة هواء أغصان الشجرة، فتساقطت أوراق صفراء كثيرة جديدة، وفكر أن شيئا غير طبيعي يحدث أمامه، وأنه يحدث أغرب فتاة عرفها في حياته، أعطاها زجاجة كولا جديدة، لكنها هذه المرة لم تشرب منها وتركتها بيدها، واخذت تدندن هامسة بمقاطع من أغنية حزينة نساها الناس منذ فترة طويلة، ولم تعد الإذاعات أو التلفزة تبثها، وانشغل بإعادة الزجاجات الفارغة ثم سمعها تسأله:
" كان أحدهم يبيع الشواء هنا "
" أجل .. إنه أبو حازم يرحمه الله "
تنهدت وقالت بصوت منكسر: " هل مات؟ !! وجوه كثيرة مضت.. "
شربت من الزجاجة جرعة واحدة، وانتابتها الأفكار، وهي تنظر إلى السابلة، الذين كانوا ينظرون إليها بفضول ثم يمضون في طريقهم، قال لها:
"لم تجلس الفتيات الجميلات في مكانك منذ وقت طويل..
أنظري كيف ينظر إليك عابروا السبيل بفضول. "
قالت بصوتها الناعس:

"أجل، إني أرى ذلك، لكنني سأنتظر قليلا قبل أن أذهب"
نظرت بساعتها: "ساعتي متوقفة منذ زمن، لكنني لا أكف عن وضعها في معصمي، وأنظر إليها، أنها هدية منه، كم الساعة عندك من فضلك ؟ !!".
نظر إلى ساعته: " إنها متوقفة أيضا، والغريب أنها قبل مجيئك كانت تعمل ".
هزها عدة مرات، ووضعها على أذنه من جديد، كأنما يأمل في سماع نبضها، ضحكت الفتاة وسألته:
" هل ملأتها ؟ "
مس طرفها الناتئ بأصبعه: أجل إنها مملوءة .
قالت عاتبة: إنني أبقى كل عام في يوم كهذا أنتظره على هذه المصطبة بعد أن أحصل على إجازة قصيرة بصعوبة شديدة من عملي ، ولكنه يكافئني على ذلك بعدم المجيء إلى مكان موعدنا... ".
بقيت الفتاة جالسة وقتا طويلا، لكنه انشغل عنها بترتيب الزجاجات الفارغة استعدادا للإقفال، وأخذ الظلام يخيم على ناتسب الذكريات.. شيئا فشيئا، والسابلة رغم ذلك لم ينقطعوا عن المرور، ولكن عددهم أخذ يتناقص، كان يرى الفتاة كلما تقدم الوقت من بعيد شبحا يغط بالصمت، والانتظار، والحزن، وكان يسمع بين الحين والآخر نهنهة خافتة تصدر من جهتها، كأنما كانت تبكي، وتمسح دموعها بحذر شديد، لئلا ينتبه لبكائها أحد، وحين اقترب منها ليقول لها كلاما لطيفا يهدئها، فهي فيما يبدو عاشقة مجنونة، صغيرة السن وستعود إلى أهلها بعد قليل وقبل أن يشتد الظلام ويقل عدد المارة، وتصير الساحة مكانا خطرا لمن مثل سنها، وخصوصا حين يخف ضجيج المدينة، ولكن حين وصل قريبا منها هاله منظرها: كانت هيكلا عظميا، يرتدي فانيلة طويلة العنق وتنورة، وبقايا شعر طويل يسقط على كتفي الفانيلة المترهلة، أراد الهيكل العظمي، فيما يبدو أن يتحرك باتجاهه ، فارتعب من حركة الجمجمة، وبشاعة المنظر، فصرخ صراخا لم ولن يفعله إنسان عاقل، وأخذ يتراجع إلى الوراء ساقطا على عجيزته.. وأسرع إليه عدد من السابلة، وساعدوه على الوقوف، أشار لهم باصابع مرتجفة إلى

المصطبة، نظروا جميعا صوب المصطبة رأوها فارغة، ماعدا زجاجات الكولا الفارغة، وقد صنع سائلها المسكوب بركة كبيرة تحتها !!

4
قص الشريط !!

-1-

في الساعة الخامسة إلا ربعا كان على الرئيس أن يفتتح دارا جديدة للإمتاع والمؤانسة، وهذا الاسم الغريب يطلقه بظرفه العجيب على دور التعذيب التابعة للمخابرات حصرا، وهناك أسماء أخرى أكثر طرافة، وبعدا عن حقيقة المنشآت، يطلقها عليها نشوانا، فالدور التابعة للأمن الخاص يطلق عليها ثلاث تسميات مختلفة، وحسب درجات عقوبة الضحايا، وهي على التوالي، دور التوليد والحضانة، دور الأمومة السعيدة، العناية المركزة بالطحال والمرارة !! أما تلك الأشد رعبا وفتكا بالناس، والخاصة بإذابة أجساد المعارضين بالحوامض المركزة، فهو يسميها دور أحباب الحكومة !! أما تلك الدور التابعة للأمن وهي التي تمارس المهمات الكلاسيكية، المتعارف عليها في بلدان العالم الثالث: كقلع العيون ومسك ألخصي بالكلابات الكهربائية، وقلع الأظافر، تلميع الجلد ويعني بالتلميع هنا – سلخ الجلد بالماء الساخن- وتعذيب أبناء المتهمين القصرأمام أنظار الوالد المكبل بالحديد، ليقر الأب ويعترف بجرائمه المنكرة ضد الدولة والشعب!! والتزحلق بأقدام حافية على الجليد والجليد هنا يأخذ المعنى المعاكس للواقع، ويعني الجمر الكهربائي!! الذي يحرق القدمين الحافيتين، فتتصاعد رائحة الشواء فيعتقد المشاة السائرون قريبا من المبنى الصامت، المريب، أنهم يمرون إزاء مطعم خاص يقدم للزبناء الشواء طيلة أيام السنة، والمدخنة القريبة من الشارع لا تتوقف عن نفث دخانها ليلا ونهارا، وثمة يافطة كبيرة معلقة بشكل مائل، وكتب عليها بخط شائه: مطعم الشباب – اختصاصيون بالكوارع- خاص بعائلات الأمن الداخلي !! وهناك دور خاصة بالأمن ازدهرت أعمالها منذ مدة تسمى بدور تعليم القران الكريم – نصوصه والعناية بترتيله- وقد اختصت هذه الدور بالمؤمنين في الجوامع الكبيرة والصغيرة ثم تم بعد ذلك بشكل حاسم جمع أصحاب اللحى دون تمييز وبسرعة مريبة، وكان بعضهم قد اهتم بتربية لحيته أرضاء لحبيبته !! أو ابتغاء الهيبة،

التي تضفيها لحية مثلثة الشكل على المظهر أو لإخفاء عيب خلقي في الفك الأسفل !! وكانت الفتيات – المراهقات – في هذا الزمن الأغبر مغرمات – بلحى الديسكو، التي يظهر بها الراقصون وهم يؤدون أغنيات شبابية – كما يسمينها، و تلك اللحى، النموذج الشائع في دول الغرب، فالفرق الموسيقية الشعبية الأوربية من زمارها إلى طبالها، وكلهم –تقريبا- يبدون بلحى منسولة نسلا لطيفا، معطرة ومزيته جيدا وشقراء .

-2-

ابتلعت هذه الدور الرهيبة هؤلاء العاشقين الصغار،النرجسيين، وكان يطلق عليها اسم دور تعليم القران الكريم – نصوصه والعناية بترتيله، لقد ابتلعتهم، ولم يظهر لهم اثر بعد ذلك أبدا، فواحدة من البديهيات الأمنية، التي بنيت على أساسها هذه الدور الغامضة سريتها المطلقة !! والبرئ إذا دخلها أصبح مذنبا، حتى لو أثبتت التحقيقات المرعبة براءته، فذنبه القاتل، انه عرف سر هذه الدور الغامضة، ومواقعها وطرائق تعليم القرآن المرعبة فيها!! وبالذات الفقرة الأخيرة: العناية بترتيله !! ومن المسلمات الأمنية، انه لو خرج حيا يرزق، وبكامل قواه العقلية، فلن يضمن احد انه لا يتفوه بكلمة لهذا، وذاك، عما رآه وعاشه من فصول المحبة!! فتعرف مخابرات الدول المعادية، أسرار العلوم القرآنية، التي تدرس لناس سيطيرون إلى السماء بأجنحة بيضاء، وتعرف الدول الامبريالية أسرار هذا الاختراع المبتكر !! فيشيع استعماله، وتفقد دولنا الشرق أوسطية، سبقها الإستراتيجي فما أهمية فرد بريء أو مذنب يموت تحت التعذيب، لأهداف سامية، وضعتها الدولة نصب اهتماماتها، لنقل عشرات الآلاف من المؤمنين إلى الجنة ؟! فورا ودون تأخير ومجانا، أذا عرفنا ما يتطلبه هذا الحشد الكبير من مصاريف خاصة بالإيواء، والحراسة، وأجور الطعام، لعدة أيام، والاندثار الحاصل بالمباني، والأجهزة، والجهاز الضخم من الموظفين، الذين يبدءون مع المتهم بورقة صغيرة ترفع من عضو بسيط ينتمي لحزب الدولة، مملوءة بالأخطاء النحوية، والإملائية، واللغوية، وبعد إضافات عديدة من جهات أمنية كثيرة يمتلئ الملف، الذي بدأ بورقة واحدة حيث يرسل بعدها المتهم بسيارات نقل الموطا، والمثلجات المقفلة الأبواب، كصندوق مكعب إلى دور تعليم القران لتحضير المتهم، وتسفيره مع إحدى المجموعات المغادرة إلى الجنة !!

-3-

حين اطلع الرئيس على التقرير المالي لهذه الدور أشار بقلمه الأخضر، وخطه المائل المتشرذم: بارك الله جهودكم، رشقوا جهازكم، فأمامكم مهمات جبارة، أن نقل الشعب إلى الجنة ليس بالأمر الهين، أنها أولى مهماتنا الوطنية، ولكن لا تنسوا عليكم بتقليص النفقات !! بالرغم من جهودكم العظيمة، ما زلت أرى الشوارع ممتلئة بالناس، وارى المعارضين يتوالدون ويزدادون، مستهلكين البضائع التي نستوردها بالدولار !! ويطالبون بحل الأزمات، وبعد كل أزمة يخوض أوحالها وطنكم، أراهم يتكاثرون، فترتفع الإيجارات، وتزدحم العاصمة الحبيبة بالوجوه الغريبة، اخدموا شعبكم من موقعكم بتقليص أعداد الناس !! فإضاعة لحظة من وقت عملكم، إضاعة لفرصة من التقدم والحياة !! ووقع ذلك الكلام بتوقيعه الذي يشبه رمية الزهر .

-4-

قرب دار الإمتاع، والمؤانسة توقفت سيارته المرسيدس السوداء، ورهط كبير من سيارات الحماية، قبل سيارته، وبعدها استقبلته عند البوابة لجنة كبيرة، مكونة من إدارة الدار، ومن جهة الشارع المقابل وقف العاملون في المشروع من عمال، وتقنيين يهتفون بحياة الحكومة والرئيس.. كان مدير المشروع قد مناهم بهبات مالية كبيرة تضاف إلى رواتبهم، إذا بذلوا جهودهم المتميزة تصفيقا، وهتافا عند وصول الرئيس، فبذل العاملون قصارى جهدهم، وقدم قسم منهم رقصات، وهوسات * هستيرية، وامتدت يده ملوحة لهم بسرور الحاكم، الذي يحب رعيته، وتقدم صوب الشريط، فقدمت له طفلة باقة ورد وهي ترتجف، فانحنى وقبلها على خدها، وهمس بإذنها كلاما، فارتعبت الصغيرة، وانعقد لسانها، ولم تستطع بعد هذه الليلة أن تنطق كلمة طيلة السنوات التالية رغم العلاج النفسي المتواصل...

-5-

اخذ المقص، وتعالى التصفيق، وقص الشريط، وتقدم داخل البناية، التي كانت تحيطها حديقة غناء، وسطها بركة ماء ونافورات بإضاءة ملونة، كان بملابسه المدنية، وظرفه المعهود، وقهقهته العالية، كاشفا عن أسنانه البيض، وخلفه وجوه غائمة لرجال الأمن، المكلفين بالحماية، فتحوا الباب الرئيسية للدار الداخلية، ودخلت الجموع المبتهجة إلى المعتقل الجديد كأنها في عيد وطني !!...

*هوسات : جمع هوسه رجز شعري شعبي .

5

وجه ميت بعينين مبصرتين .....

في تلك المدينة الكئيبة، حين كنت عاملاً فيها بالأجرة، ألتقيته أول مرة، ومنذ أول يوم بل منذ الساعة الاولى، التي ألتقيته فيها، وهو يحدثني عن أمه .. كنا في ذلك الوقت لم نتجاوز الخامسة عشرة من عمرينا . كان مفتوناً بأمه، لم أعرف في ذلك العمر الغض سبب ولهه بأمه، وعرفت بعد ذلك منه، إنه كان يتيماً، وأنّ أمه رفضت كل العرسان الذين تقدموا إليها بعد وفاة أبيه، وقد أقسمت أغلظ الأيمان إنها سترعى أبنها الوحيد، ولن تقترن بزوج آخر، حتى آخر يوم في عمرها . وكنت في ذلك الوقت قد أضطررت للعمل، بسبب مرض أبي، وتوقف مصدر رزق عائلتي، وطيلة الوقت، كنت أنظر إلى زميلي في العمل بأرتياب، وأنا أتذكر وصايا أمي بعدم الاختلاط بأولاد الشوارع، ولا أدري حتى هذه اللحظة، ماذا كانت تعني بكلمتي [أولاد الشوارع !!] إلا أنهما كانتا تعنيان لي وقتها: الأولادالذين أخترقوا الأعراف الاجتماعية، وتحولوا إلى سراق ومدمني خمر، ولا يتورعون عن فعل أي شيء يقودهم إليه مزاجهم، وتفكيرهم الأعوج، وكان داخلي – أنا إبن البيوت – خوف غريزي عظيم منهم .

لقد كان زميلي في العمل من تلك الفئات غير المتعلمة، التي نَذَرَتْ أرواحها منذ نعومة أظفارها، للحصول على لقمة العيش، ولم تتعلم من اللغة سوى كلمات نابية، بذيئة، وأخذتُ طيلة الوقت أفكر بسوء الحظ، الذي ألقى بي في دروب هؤلاء غير المتعلمين، وبهذا العمر المبكر، وفي الحقيقة أن الفرق بيني وبينه، أنني كنتُ أواصل دراستي بعد العمل، وهو كان يعمل لفترتي عمل لإعالة والدته .

في أوقات الراحة كان زميلي في العمل يحدثني عن أمه، وكان صاحب العمل يناديه بأسم [كاظم حيانية !!]وكان أسمه منسوباً إلى مدينته الكبيرة، التي تضم الآلاف من الفقراء أمثاله وأمه. لم أكن أعرف في البداية لِمَ نسبوه إلى مدينته، لكنني عرفتُ فيما بعد إنها حيلة شيطانية من صاحب العمل، حتى يحمل – كاظم – أحمالهم الثقيلة، فكلما وقعتْ عيونهم على حمل ثقيل، قالوا [لايقدر على نقله

أحد غير كاظم حيانية !!] وكانوا – صاحب العمل ومعاونوه – كانوا ينظرون صوبي بأزدراء، لكوني من طلاب المدارس – ضعاف البنية – الذين لا يصلحون لشيء، وكان كاظم حيانية يهرع إليهم مشمراً عن ساعديه الموشومتين بسيوف، وعقارب وقلوب حب زرق، وعندما أحاول الاقتراب منه لأساعده، يشير لي بيده أن أبتعد، ووسط تصفيق الحاضرين، وتشجيعهم يحمل الاحمال الثقيلة، وينقلها من مكانها القديم الى المكان الجديد . وكنت أهمس له " أنك ستؤذي نفسك دئازلا لمحلا اذهب!! "

وعندما نجلس معاً لتناول طعام الغداء في زاوية المقهى الصغيرة، كان يفخر أمام الجميع بإنه صديقي، ويقول لعمال المحلات القريبة، وحالهم مثل حالنا – عني – أنّ صاحبي يدرس في الثانوية، وبعد سنوات قليلة سيتخرج ليصبح طبيبا، وعمله الحالي ليس إلا مرحلة مؤقتة، وكانت أقواله تشعرني بالخجل، لكنني في ذات الوقت أشعر بأعتزاز عميق بنفسي بعد أن أذلتني الخرق البالية، التي أرتديها، لما تتطلبه ظروف عملي الحالي . وفي تلك الظهيرة الشتائية، حدثني عن نيته لشراء ثوب أسود تتمنى أمه أن ترتديه، وكنا سنقبض أجرتنا الشهرية في ذلك المساء ذاته، وطلب مني أن أصحبه لئلا يضحك عليه البائعون، ويبيعون له شيئاً- ليس بالمستوى اللائق بأمه – وبثمن أغلى، وفي تلك الليلة الماطرة، الباردة، أشترينا ذلك الثوب بعد أن زرنا عشرات المحلات، وأعطى كاظم حيانية عن طيب خاطر نصف أجرته الشهرية، للحصول على ذلك الثوب الذي ستفرح به أمه .

لأنني الوحيد، الذي لم يسخر منه بسبب ما يرويه عن أمه، واعجابه الشديد بها، أصبحت محط أسراره، فكان يحدثني عن قريبهم، الذي يتردد على بيتهم، وإحساسه الممض بالغيرة من أن يستطيع ذلك – القريب – أن يفوز بقلب أمه، ويتزوجها ، وكنت أشعر بألمه، وشعوره الدائم بالأحباط والحزن، كأنما سيفقد كل ما يملك مرة واحدة بزواج أمه من ذلك القريب .

وعاد في يوم آخر، والفرح يشع من عينيه ليهمس بأذني أنَّ أمه رفضت ذلك القريب الثقيل، وقالت إنها ستبقى لأبنها حتى تزوجه، ويكفيها أن تراه عائداً كل مساء ليملأ حياتها، وأيامها فرحاً وسعادة . أتذكر أنه ما أكل شيئاً طيباً في فترة الاستراحة من العمل إلا وتمنى أن تأكل أمه مثل ما أكل، وكان يحصي الساعات المتبقية من وقت عمله، ليتمكن من الذهاب الى محل بيع [اللوزينة أم الهال] ليشتري الحلوى التي تحبها أمه أو ليملأ قدراً كان يحمله

معه بالكباب من مطعم قريب، كان مشهوراً بالمدينة بأنَّ أفضل أنواع الكباب يُعمل فيه، ويطلبُ من عامل المطعم أنْ يضع أكبر قدر من المخللات، لأن أمه كانت تحبها . حدثني كثيراً عنها حتى صرت أعرف كل شيء عنها : متى تبكي متذكرة زوجها ؟ وما الذي يسعدها ؟ وأية أغنيات تحب للمطربين العراقيين، ناظم الغزالي، حضيري أبو عزيز، داخل حسن، مسعود العمارتلي، وماذا تردد بصوت هامس ليلة الخميس، وهي تبخر الدار أتقاء للحسد والأرواح الشريرة، وتدور بصحن الحرمل طالبة من الله أن يطرد شر الحاسدين عن أبنها وبيتها، وأن يرزقه بأبنة الحلال التي تسعده، وأن يبقيها الله حية حتى تربي أولاده .

وكلما مرَّ الوقت، أكتسب صاحبي شهرة واسعة لقدرته على حمل الأشياء الثقيلة، والألسنة الكثيرة التي تلهج بأسمه أثناء العمل تزيد من حماسته، وكان ينصت لما يقولون: [كاظم حيانية .. هو الوحيد الذي يحل أي مشكلة في التحميل والتفريغ ..] وكنتُ الوحيد الذي يعرف سر قوته، وسبب قدرته على رفع هذه الأثقال، التي لا يستطيع أحد منا تحريكها، فقد همس لي في ظهيرة قائظة: أنَّ أمه لا تتوقف عن الدعاء له ليلاً ونهاراً، ليمكنه الله ويعطيه القوة، لرفع أي حمل ثقيل يُطلب منه رفعه .. وهكذا صار عندي موضوع قوته الخارقة – حقيقة – لا مجال للنقاش فيها أو التعجب من وجودها، وهي حقيقة أراها يومياً حاضرة، واضحة المعالم، لا لبس فيها ولا مجال للريبة، أو احتمال أفتراض آخر غير الذي أخبرني به .

شَفيَّ والدي من مرضه بعد شهور قليلة، وعاد إلى عمله السابق، وتركت بدوري العمل، وعدتُ من جديد طالباً نظيفاً مجداً، أتحاشى ما أمكنني أن أستخدم الكلمات النابية، التي تعلمتها في فترة عملي، وأخذت أقص أظافري بأنتظام، ولم أعد ألتقي كاظم حيانية، وأصبح ذكرى مشوشة من ذلك الماضي البعيد المؤلم، الذي يحرص الإنسان على نسيانه دائماً، لأنه يُذكر بالحاجة والألم، ومذلة إطاعة أوامر الغير، من أجل رغيف الخبز، والتزلف الى هذا أو ذاك، ليكن وجودك مقبولاً أو في الأقل مستساغاً وحرصك الدائم أن لا تجعل نفسك محط السخرية . لقد كانت معاناة حقيقية، وقد نسيتها بسرعة قبل أن أكمل الثانوية، وفي سنوات كلية الطب صارت الحكاية برمتها مشوشة، لا تحتمل التصديق حتى بالنسبة لي، فهل من المعقول أنني -أنا- إبن الآسرة المعروفة عملت في سنوات مراهقتي الاولى، حمالاً عند الغير بأجرة قليلة ؟

وصرت طبيباً، ربما كانت مصادفة أن أكون الطبيب الخافر في مستشفى المحافظة المركزي في تلك الليلة، ولا أقول أنها مصادفة، لأننا في حقيقة الأمر – الأطباء الجدد – نبقى خافرين طيلة أيام السنة الأولى من تخرجنا في المستشفى المركزي الوحيد في المحافظة . وكان علِيَّ أن أصدر شهادات الوفاة، التي تحدث ليلاً ، بعد الفحص والتأكد من أسباب الوفاة، ليتم الدفن في الصباح، وفي تلك الليلة كنت أمام تابوت امرأة متوفاة، كان رجلان مع التابوت، وسمعتهما يهمسان بأسم ليس غريباً عني [كاظم حيانية !!] أجل تلك المعرفة القديمة، زميل العمل السابق، ذلك الذي يحمل الأثقال ولا يساعده غير دعاء أمه اليومي له، قالا فيما قالاه : إنها امه، وقد ماتت عندما غربت شمس هذا النهار، وأن أبنها الوحيد في مدينة بعيدة يؤدي خدمته العسكرية . وأن أحدهما –قريبها – وهما يطلبان أذناً بالدفن، في تلك اللحظة نظرتُ الى الجسد الضئيل المسجى في التابوت، وفوقه ملاءة حائلة اللون وقد بدت قدماها من أطراف الملاءة يشوبهما أصفرار عميق، شعرت بقلبي يخفق بشدة ..

كنتُ أريد أن أرى وجهها، أريد أن أرى وجه هذه الأم، التي كانت تبكي حين تسمع حضيري أبو عزيز، وتشعر بالعار من أن تتزوج، وأبنها بطول قامتها، كما كانت تقول دائما على لسان أبنها، أن أرى وجه تلك السيدة، التي تستحي أن يراها طبيب وهي بلا عباءة، حتى ولو أوشكت على الهلاك مرضاً . كنت أسمعها، وهي بتابوت موتها تدعو الله لأبنها، وهو في منفاه البعيد، وترجو الله أن يحفظه لشبابه، إني أراها الآن بثوبها الأسود في المعازي، والأفراح، تقول لمن يسألها أن أبنها أشترى لها الثوب، وانه أحسن شباب هذه الدنيا، وستزوجه أجمل فتيات حيها، وتفرح برؤية ابنائه، وغالبتُ دموعي المحتبسة ورفعتُ الملاءة عن وجهها بحذر، كان وجهها لا يختلف عن وجه أي أم أخرى ميتة رأيتها من قبل في عنبر الأموات، ولكن لاحظتُ ثمة ألتواء لا يكاد أن يرى في الشفة السفلى يجعل الوجه معبراً عن حزن عميق، وثمة لصفة غريبة في عينيها المفتوحتين بأتساع مدهش، كأنما تنتظران عودة ذلك الابن الوحيد، صديقي "الحمال" ذاك ، الذي اعتقد جازماً أنه في هذه اللحظة بالذات، كان يحدث الجنود ممن صادقهم في فصيله عن أمه، والأشياء التي تحبها، والأخرى التي تكرهها، كعادته دائماً في أي مكان يكون فيه !!

6
ما يحدث بعد الموت !!

ما فعلته في ذلك اليوم الشتائي الدافئ لم يكن مألوفا للعاملين في الشركة، وإنا ادلف إلى شركة نقل الموتى المحدودة بالدار البيضاء، القريبة من ساحة الأمم عبر ساحة صغيرة، و شارع محمد الخامس، كما سأفصل ذلك في السطور القليلة التالية !!

نظرت إلى تلك اليافطة التي لا تنسى وقرأت "حديقة الجامعة العربية " وقد سقطت كلمة الجامعة، و بقيت حديقة العربية، عبرت ذلك الشارع المزدحم بالسيارات المسرعة، و في اللحظة التي كنت مشغولا إثنائها بإمتاع عيني برؤية وجه شرطية جميل، وسط الشارع، كان قوامها البديع ببذلة الشرطة النسائية، و قبعتها الأنيقة سببا في حدوث معظم حوادث السير في هذا المكان ! لم يكن ذلك اكتشاف احد غيري.. إنا من اكتشف هذه الحقيقة، لأنني أنا نفسي، وإنا عبر الشارع باتجاه شركة نقل الموتى للبحث عن عمل لي، وبعد أن قطعت مفوضية اللاجئين مبلغ الإعانة الصغير، الذي كانت تساعد به عائلتي، ويئست من أن أجد عملا مع الأحياء أو في أمر يخص الأحياء في هذه المدينة!! وكنت بالرغم من تعاستي (وهي تعاسة طبيعية موروثة عن أجيال متتابعة من الأجداد يرحمهم الله) أمتع بصري بمتابعة تلك الجميلة، والشق الطولي من الخلف بتنورتها الضيقة، الذي يشي ببياض ساقين لافت للنظر، وفي هذه الأثناء المتألقة بالفرح، ومتعة النظر، تعالى صوت كابح سيارة مرعب !! و رأيت سيارة تتوقف على بعد خمسة أمتار مني .. هرولت باتجاه الضفة الأخرى للشارع متابعا النظر إلى الشرطية الحسناء، بينما كنت بطرف عيني أرى سائق السيارة يهز يده استهزاء مني، ومن قلة عقلي، الحسناء لم تلتفت لي أبدا، فهي معتادة فيما يبدو على تسببها لبحوادث مروعة في هذا الشارع، وذلك الصوت الذي أحدثه الكابح لم يثنها عن إعطاء إشارتها للسيارات الباقية بالمرور، وفي نفسها تقول " صريع آخر لجمالي انقذه الحظ !! ".

إمام الواجهة الزجاجية صرت وجها لوجه، أمام زهور و أغصان، و موديلات أشجار بيتيه واطئة، مخصصة لجنازات محتملة، أصص متنوعة ازدحمت في الواجهة الزجاجية للمحل، لكنك حالما تدخل المحل لا تشتم رائحة

أزهار بل تداهمك رائحة الموت ؟!! ولكن ليس هي من تلك الروائح التي تذكرك برائحة التفسخ، بل هي قريبة من رائحة الفورمالين وسوائل كيميائية أخرى تستخدم عادة في المستشفيات لمعالجة الجروح، وحفظ أجزاء الجثث المحفوظة في معارض كلية الطب.

انتبه الموظفون لدخولي عليهم هذا الدخول الكاريكاتيري، فأنا في العادة ابتسم حين ادخل محلا من المحلات، وقد اعتاد العاملون في هذا المكان على اكفهرار الوجوه الداخلة عليها و عبوسها، فمن يدخل هذا المكان من غير العاملين فيه قد أصابته فاجعة بموت قريب، أو صديق، ولقد جاء لتسوية أمر نقل جثمانه من مكان إلى أخر، أما ما رأوه على وجهي من استقبال رحب للحياة، وابتسامة مضيئة، و ملابس ارتديها ملونة، و لا اثر فيها للحداد، و الحزن فإن ذلك كله جعلهم يتساءلون في أنفسهم عن هذا المجنون، الذي دخل شركتهم دون أن يخاف الموت وعواقبه، و لا منظر أنواع الخشب التي سيختارها لتكون تابوتا لعزيزه، وهي على سبيل المثال أنواع فلقعر التابوت من الخشب غير غطائه ، و لجوانبه غير خشب بطانته، و هكذا دخلت أول مرة إلى مقر (شركة نقل الموتى عبر البحار المحدودة) باحثا عن عمل، كأنما قطعت ألاف الكيلومترات من حدود و طني حتى وصولي لهذا البلد، لأعمل في شركة تتاجر بالموت و الموتى !! أنها دائرة اتصالات عالمية من نوع أخر، وبعد أن حصلت على عمل بسيط فيها كعامل على القطعة عرفت أننا نعمل في دائرة بريد من نوع آخر !! هي دائرة بريد يرسل الرسائل، رسائل الناس لقاء ثمن معقول، إلى كل أصقاع العالم، ولكن الرسائل التي يرسلها بريدنا، هي جثث أقرباء و أصدقاء ترسل وفق أفضل الشروط الصحية، والإنسانية وحسب المعتقدات ولكن بعد أن تجفف قليلا !!

واسمحوا لي أن اسمي عملية تحنيط الميت بعملية تجفيف الميت !! وهي في اعتقادي التسمية الصحيحة لما رأيته يحدث دائما لجثث الناس في هذه الشركة، التي عملت فيها لفترة قصيرة قبل أن أطرد شر طردة، لأنهم وجدوا في شخصيتي رومانسية لا تليق بمن يعمل في هذا المجال الذي يحتاج إلى شخصية دراماتيكية من نوع خاص !! لقد وعيت في عملي ذاك الكثير من الدروس وأهمها: انك عندما تموت ستنال المزيد من الركلات، و المزيد من الماء الساخن لإزالة شعر العانة، و الصدر، و سيدفع أقرباؤك

الكثير من المال لهذه الشركة من دون داع، و كلما كان المبلغ كبيرا، كلما كان الركل الذي يتعرض له ميتهم كثيرا !! و حرارة الماء التي سيهلس بواسطتها شعر عانته مرتفعا !!

و يتضاعف الحقد الطبقي على الميت من قبل العاملين بأجور بخسة في شركة نقل الموتى، و بالتالي سيتعرض الميت إلى أحقاد لا مجال لذكرها ألان !! و يكفينا في هذه القصة القصيرة، الكتابة عن اللحظات الأولى التي تضمنت لقطات قصيرة من استقبال العاملين لي في اليوم الأول من دخولي شركة نقل الموتى عبر البحار المحدودة، التي ترعى شؤون ما يحدث بعد الموت للغرباء في هذا البلد، طالبا العمل فيها وانطباعاتي السيئة الأولى عنها !! .

7

زهورغالية الثمن ---

---------------- قصة قصيرة

(1)

كنا طيلة الوقت أنا وسلوى زميلتي في العمل نقص القماش الملون، ونصنع منه وردا، كانت أمهر مني في صناعة الورود، وكنت في الحقيقة مجرد مساعد لها.. يأتون بي من قسم آخر في المعرض لأبقى معها ساعتين أو أكثر، بأمر صاحب العمل، لأتعلم منها أسرار مهاراتها، وهي تخترع أشياء عجيبة تذهل المتبضعين، أرى من خلال زجاج المعرض طالبات جامعيات، يبدون مثل باقات ورود ملونة، وتتطلع عيونهن المتلهفة، لرؤية جديدنا من باقات الورود، ومن خلف الزجاج تتطلع وجوه رجال وشباب ومراهقين، وتتبعج أنوفهم على الزجاج، وهم يحاولون معرفة أسرار لمعان ورودنا، التي زودناها بمصابيح صغيرة ملونة حرارية مخفية، تنطفئ وتضيء، حالما تلمسها الأيدي، فتبهر الإبصار بجمال ألوانها.

(2)

في أوقات الفراغ ننظر إلى الساحة الواسعة المزدحمة بالناس، والى العصافير التي تروي ظمأها من النافورة عندما يقل مرور الناس. لم نتكلم

كثيرا، فعملها يتطلب دقة كبيرة، وكان حجابها ناصع البياض، وقد أظهر وجهها مدورا، وبدا كما لو كان حوله هالة نور، مما جعل جمال وجهها أخاذا. يتملكني شعور بالحرج كلما اقتربت منها، فجمالها من ذلك النوع الذي يدفع أي شاب للإحجام عن اللغو الفارغ معها، حالما تقع أنظاره عليها، ويحسب لكل كلمة يقولها ألف حساب، لئلا تتوجسه، فيخسر لذة القرب من هذا الكائن الجميل الشفاف.

أما حين تتكلم، فإنها ستتكلم عن صناعة الورود، وعن ألوان خرافية ستتمكن من شرائها لتطلي بها القماش، الذي تصنع منه الزهور. كانت سلوى أكبر مني بثلاث سنوات فقط، لكنها كانت تعاملني كأخت كبيرة، فهي تشعر بالسرور كلما باعت شيئا من باقات ورود معرضنا، وحين تراني صامتا لفترة طويلة، تحدثني وهي تحوك شيئا من الورق الملون أو القماش بأصابعها النحيلة، التي تبدو كأصابع عازفة بيانو: تحدثني عن أخيها المراهق، ومشاكله التي لا تنقطع مع أولاد الجيران، وأمها المريضة، وهي تشعر بالرضا عن نفسها عندما توفر معظم راتبها لشراء الدواء لها، ولمراجعة أطباء جدد أثبتوا مهاراتهم في تشخيص الأمراض وعلاجها، وتتحدث عن مشاريعها الكثيرة، التي لا تستطيع أن تنفذها الآن، لأنها بلا تمويل مالي، ثم تضع المقص الفضي على المنضدة قريبا من أوراق شفافة ملونة، وأخرى صقيلة لامعة، والمكان جميعه يمتلئ بأصص ومزهريات فخارية، وأحواض ورد، وكرات من الكريستال، وبلورات صغيرة جدا تحلل الضوء إلى ألوانه السبعة، وتنظر إلى طيور النافورة التي تلتقط الحبوب من مدورة الطيور في مركز بركة ماء المجمع التسويقي.

(3)

أمي حكت لي يوما حين كنت صغيرا عن ألوان الورود وعطرهن الخاص، التي تملأ صدري كلما ذهبت بصحبتها إلى بيت جدي، وحال توغلنا في بستان جدي الصغير، فقد كان البستان في حقيقة الأمر حديقة صغيرة تقع في مقدمة دار جدي القديمة، ولكن جدي كعادته عندما يضخم الأمور.. فيسميها بستانا، وكان يمضي طيلة يومه في العناية بنباتاتها، ويسميها دائما " بستاني .. حقلي الحبيب "

كانت أمي تقول أن تلك الزهور تنفذ خطة بارعة لاجتذاب أسراب النحل، بألوانها وعطورها، فهي تجتذب تلك الأسراب ليتم تلقيحها بطلع النباتات

المذكرة، وهكذا عرفت من أمي أن دليلها على خدعة الزهور الماكرة، التي تدبرها قولها، أنها حالما يتم تلقيحها بحبوب الطلع تفقد أوراقها وألوانها وعطورها، وتتحول إلى كائنات صلعاء، متضخمة قبيحة !! وكأنها لا تمت بصلة لتلك الزهور التي كانت يوما تغري الناظرين بالنظر إليها واستنشاق عطورها، فهي خدعة أودعها الخالق تعالى فيها ليستمر نسلها، ولتكرر سلالات المخلوقات وجودها. أسمع زميلتي في العمل تهمس حالمة، متحدثة عن زهورها غالية الثمن: "أنها تملك لغة خاصة تفهمها القلوب وحدها " وهي تصوغ من هذه اللغة رسائل حب، وإثارة عواطف للنفوس المتبلدة، واستعادة الذكريات القديمة، المنسية. أستمع إليها مسحورا بها وبالكلمات التي تقولها. لا أدري من قال أن نوعية العمل الذي يمارسه الإنسان سيطبع كل تصرف من تصرفاته، وينطبع ما يقوم به على قسمات وجهه، مثل بصمة دائمة. ربما ليس هذا صحيحا دائما، لكنه في حالة سلوى، فهو ينطبق عليها مائة في المائة.

(4)

وزعوا علينا في احد الأيام سندويجات، ملفوفة بورق اكلينكس أبيض، وزجاجات كولا وحلوى، وقالوا هذه الأشياء الموزعة هي بمناسبة خطوبة سلوى، فشعرت بالإحباط، ولم أصدق أن تفارقنا سلوى الرقيقة بهذه السرعة، وهي التي يكاد الكلام أن يخدش بشرة وجهها، وتنال منها كلمة زائدة تسمعها من هذا أو ذاك، وتجعلها تغض بصرها، والدم يكاد يتفجر من وجنتيها خجلا، هكذا بسرعة، تفارقنا لتتزوج وتعيش مع زوجها في مدينة أخرى كما سمعت من زميلاتها في العمل، فلا آراها بعد ذلك، وحرصت بعد أن سمعت الخبر بأيام أن أسترق النظر لأصبعها لأرى خاتم الخطوبة الذهبي، الذي كانت تخفيه بخجل، ولم أسمع أنها تطرقت لموضوع خطبتها، فقط حين هنأتها بالخطوبة، قالت متنهدة: إن شاء الله نفرح بك قريبا! فضحكت وقلت لها وصوتي يمتلىء باليأس: من أنا ؟! هذا حلم بعيد !

قالت بصوتها الناعس، وهي تواري عينيها خجلا: لماذا ؟ ألف واحدة تتمناك خطيبا لها !

" فضحكت بصوت عال لأوضح لها خطأ تصورها، وقلت موضحا: ومن أين أتي للخطيبة والتي ستصير زوجتي بثمن الشقة، والذهب، والأثاث، والأشياء

الإضافية التي ستطلبها العروس، وأهل العروس ؟! علي أن أبقى أجمع المال حتى يغدو شعر رأسي كالفضة !!
(وأراد أن يقول لها: وأن يكون كرشي كبرميل الطرشي! لكنه أحجم عن قول ذلك متذكرا: كرش خطيبها الضخم الذي رآه خطفا، وهي معه في السوق الذهب !!).
فأكمل: حتى أصير صالحا للاستعمال كخطيب وعريس بعد ذلك !! ابتسمت، ثم قهقهت ضاحكة بعد ذلك، وكأنما شعرت أنها بالغت في مجاراتي في سخريتي، فغضت طرفها، ويبدو أنها فهمت معنى الفراغات المقصودة بين السطور التي قلتها، فظللت وجهها غمامة حزن شفيف، لا يكاد أحد أن يشعره، لكنني شعرت به وعرفت في ذلك اليوم أنها حزينة جدا، لكنني لم أعرف لماذا ؟!
(5)
وبعد أيام قليلة، اختفت سلوى من الظهور في المعرض، وسمعنا أنها وخطيبها يستعدان للزواج ولقضاء شهر العسل في دولة مجاورة، وتم تكليفي بأداء عملها، فأخذت أصنع باقات الورود كما تعلمت منها، لكنني طوال الشهور التالية لم أستطع أن أضع فيها ذلك التألق الغريب، الذي كانت سلوى تضعه فيها، كانت تضع جزءا من روحها في كل باقة، وكنت أستطيع أن أشم عطرها الخاص في كل زهرة تمر عليها أناملها، أما أنا فقد كنت أقوم بعملي بآلية وهدوء، وصبر، وأشعر بأن باقات زهوري تعاني من شيء ما، من حزن ما، من مرض ما، بالرغم من أن هذه الجمادات لا تمرض، ولا تعرف الحزن مثلنا، وليس لها مشاعر، ومع ذلك فهي تبدو لي ذابلة، مهما فعلت لها، ومهما بالغت في دقتي في العمل، وبالرغم من أنني استخدم ذات الطرق والمواد، التي كانت وما زالت تستخدم في المشغل لصنعها. تذكرت سلوى، وأنا أقوم بعملي الروتيني اليومي، بتشكيل باقات الورد.. سلوى التي انتهى شهر عسلها منذ شهور كثيرة، وأنها كما سمعت من زميلاتها السابقات سعيدة بزواجها وحياتها الجديدة، وزارتنا بعد ذلك في المشغل وكانت حاملا، وقد فقدت كل ذلك الجمال الذي كنت أظنها تنفرد به، وتذكرت حكاية أمي عن الزهور التي تذبل من أجل حياة جديدة، واختفت بعد ذلك سلوى ولم نعد نعرف أخبارها، لكنني كنت كل يوم تقريبا أتذكرها بهيئتها قبل الزواج، كلما رأيت عصافير النافورة بين الفينة والأخرى، وهي تشرب الماء، أو تلتقط الحبوب من مدورة الطيور، وسط النافورة، وأنا أغرق في فوضى باقات زهوري التي لا تبتسم لأحد.

8
أمنيات لم تتحقق...

قبل أن يموت جدي بفترة قصيرة كنت الوحيد الذي يلازمه طول الوقت، كأفضل صديق بالرغم من أن عمري وقتداك لم يتجاوز الثانية عشرة، و كنت أصغر أحفاده على الإطلاق؛ و أحفاده كثيرون موزعون على منطقة شاسعة بين الريف و المدينة! لم يكن كبيرا جدا في العمر عندما مات، لكنه دأب على تزويج أولاده و بناته في سن مبكرة، و ما أن ظهر أول صف من الشيب في مفرق رأسه حتى وجد عددا كبيرا من الأحفاد حوله، فكان يقول لأحدهم، و هو يرفعه عن الأرض ليقبله: حبيبي حسين! فيرد عليه الصغير بتأتأة محببة: لا جدي..أنا علي!! و تختلط عليه أسماء الأحفاد بين سنة، و أخرى فلا يفرق بين: محسن و عباس.. بدرية و فاطمة، سعد و سعيد، و أسماء أخرى كثيرة، لكنه بقدرة قادر حفظ أسمي- ربما- لأن أبي و أنا كنا نعيش معه في البيت الكبير، فارتبطت به بصداقة حميمة، و كان بين الجد و الحفيد الكثير من الأسرار، التي لم يكن أحد غيرنا يعرفها، و قد كان عسكريا قبل أن يتقاعد. كان ذلك قبل زمن بعيد. كنت أعرف ان أصابعه ترتجف و لن يتمكن من رسم شيء مفيد في لوحة الرسم التي كنت أنوي رسمها، لكنه أعطاني المال اللازم لشراء الألوان الزيتية، و مع كل ما قمنا به و قلناه بشكل مشترك. كان بين الحين و الآخر يودعني رغباته و أمنياته، و ما يخططه، و يتمناه لجنازته بعد الموت! فقد كان يتمنى أن يكون المعزى الذي يقام له بعد الموت كبيرا، و تذبح فيه الذبائح السمينة، و يوزع اللحم المطبوخ على الناس بقطع كبيرة تملأ رغبات العيون قبل البطون، و تفيض عن الحاجة، و تنفرج أسارير المعّزين عن ابتسامات راضية بحكمة الله، و قضائه، و يوزع فائض اللحم على الجيران، و أمنيته الثانية أن تمر جنازته عبر السوق الرئيسي لمدينتنا بشكل مهيب ليعرف المعارف، و الغرباء أن ذلك المحارب القديم، الذي ساهم في معارك الوطن قد مات، و يكتب على شاهدة قبره، إنه أفنى عمره في الدفاع عن البلاد و مات معوزا، مريضا، دون أن تزيد الحكومة من راتبه التقاعدي الزهيد!! و طلب مني ان أكتب هذه الأمنيات، و أحتفظ بالورقة لئلا أنساها ساعة وقوع المحظور، و

قال و هو يخوص بعينيه الكليلتين و يحك ذقنه بأصابعه المرتجفة: ستعرضها على جدتك لتعرف الجدة ماذا تفعل في ذلك اليوم، و أرجو أن لا تقع جدتك في الغلط فتسيئ فهم أمنياتي!! و نظر إلى الأفق حزينا، و اتبع ذلك بسعلة جافة، اعتقدت أنه سيغادر الحياة بعدها، لكنه استعاد أنفاسه و مرحه بعد لحظات، و ربت على رأسي بكفه المنكمشة، الباردة، و قال: لا تصدق إني سأموت قريبا، و سعال جاف لا يقتل محاربا صلبا مثلي!

في صباح باكر استيقظت، وأنا أسمع لغطا و بكاء جدتي و أمي و عماتي المتقطع، و عرفت بعدها أن جدي قد مات! أسرعت ألى جدتي، و أعمامي الذين قضوا الليل إلى جواره بعد أن اشتد عليه المرض، و الدموع في عيني، و أخبرتهم بكل أمنيات جدي حول جنازته، و قرأوا الورقة التي كتبتها له قبل شهور، لكن الجدة قالت متمتمة بغيرة عمياء، و وجه متآمر، موضحة أهداف جدي السرية: أن هدف المرحوم من إمرار جنازته وسط السوق الكبير، ليست سوى حيلة مكشوفة لي!! و لم تكشف الجدة حيلة المرحوم لأولادها!! لكنني سمعتها تهمس لعماتي: أن أباكم أراد أن تعرف-زاهية- بائعة القماش- بموته و هي التي أحبها، و أحبته في مطلع شبابهما، و لم يوافق في ذلك الوقت أبوه يرحمه الله على زواجه منها، لأنها تعمل في السوق مكشوفة الوجه مع الرجال!!

وقالت الجدة متالمة: أنظرن ما زال بعد هذا العمر الطويل الذي قضيته معه يريدها، و حتى بعد ان مات إلى رحمة الله!!

ثم تابعت متحدثة: لكنني لن أمكنها من الإنتصار علي، حتى و لو كان ما نتنازع عليه مجرد كهل ميت!!

و تركتْ عماتي و عادتْ إلى عمي الكبير بقسمات وجه صارم لا يقطعه السيف، و طلبت منه أن تمر الجنازة على طريق آخر لا يمر بالسوق، و لم يكن ذلك الطريق سوى المرور بمزبلة المدينة الضخمة، و لا يمكن قطعها بشكل مستقيم لارتفاع حجم النفايات، و اضطرار الموكب الجنائزي، للدوران في طرق فرعية تتوغل داخل دوائر، و أشكال هندسية غريبة وسط روائح كريهة، فسارت جنازة الجد إلى خلف بيوت المدينة، متحاشية المرور بالسوق، و قلب المدينة، و انحرفت بعد ذلك إلى اليمين، و دخلت في متاهات المزبلة، و كلما توغل الموكب في المزبلة تناقص عدد المشيعين، فبعضهم لم يحتمل الروائح الكريهة ففضل التلكؤ عن متابعة المسير، و انفض الجمع الكبير، و أخذ

الكثيرون ينظرون إلى جنازة جدي المحمولة على أكتاف أعمامي من بعيد، و خلفها جدتي تمشي برأس مرفوعة، و عماتي و هن يخمشن خدودهن، و رأيت فوق وجوه الناس المنفضين عن موكب اشباح ابتسامات ساخرة مما يحدث! و الشيء المفجع أن عددا من الكلاب التي أصابها الهزال و انتشر الجرب على جلودها ظهرت فجأة من الحفر، و من بين أكوام النفايات، و هي تعوي كالذئاب، و اندست بين الرجال الحاملين للجنازة، فارتفع صراخ النساء، و أخد الرجال يدافعون عن أنفسهم بأقدامهم، لأن أيديهم كانت مشغولة بحمل التابوت! و تذكرت أن طيلة فترة صداقتي مع المرحوم جدي، أنه كان يتشاءم من سلوك هذا الطريق البشع، لقد سارت ذلك اليوم الرياح بما لا يشتهي الجد!! و كنت أراقب التابوت الذي يرتفع و ينخفض، و يوشك على السقوط إلى الأرض كلما استطاع كلب من النيل من أحد أعمامي إلا أنهم لم يسمحوا بسقوط التابوت على الأرض، كان سقوط الجنازة في المزبلة يعني عارا أبديا لأسرته و عشيرته! فاستقتل أعمامي لحمل التابوت فوق الرؤوس، و ركل الكلاب التي تجرؤ على الإقتراب منهم في الوقت نفسه!! و قد احمرت وجوههم و امتلأت شعور رؤوسهم بالتراب، و بالرغم من خوفي الشديد من الكلاب، و قد كنت مع موكب النساء الذي يلي الجنازة إلا أنني كنت أرمي الكلاب المتوحشة بالحجارة، التي أتمكن من إلتقاطها في الطريق، و في كل لحظة كنت أنتظر أن يرفع الجد رأسه من التابوت، و يزيح الملاءة القطنية المزركشة بخيوط الذهب عن وجهه الغاضب، ليشتم جميع أولاده، و أخوته و يطلب منهم أن يتركوا هذا الطريق القذر، و يرجعوا به إلى وسط المدينة ليعرف القاصي و الداني إنه مات، لكن الجد لم يرفع رأسه. كأنما أخيرا استسلم لما خططت له الجدة طوال حياتها بإصرار عجيب: أن يكون لها وحدها !! دائما و إلى الأبد، حتى لو اضطرت و أولادها، و أحفادها على التمرغ في كل نفايات العالم!!

- 3 -

بعد أن عدنا من دفن جدي قالت الجدة بوجه راض: أمنية جدك حول الذبائح السمينة، و قطع اللحم الكبير في صحون المعزين.... هذا أمر سهل! ثم أخدت تفتح صرة بعد أخرى، و تجمع نقود هذه الصرةإلى دنانير الصرة الأخرى، و تفتح صندوقها الخشبي المرصع بالقواقع، و تستخرج من جوفه المظلم جورابا قديما ملأته بالدنانير المدعوكة، و أخد عمي يعيد مط الدنانير ليعطيها شكلها المحترم قبل أن يرصفها فوق بعضها البعض، و بعثت الجدة من

يستطلع أسعار الذبائح المرتفعة جدا، و لكنه عاد لاهثا بعد وقت قصير ليخبرها عن أسعار الذبائح المرتفعة جدا، و عمليا بعد مقارنة الأسعار الجديدة بما جمعته الجدة و الأولاد، فقد صارت أمنية الجد مؤودة هي الأخرى!! فاشترى أعمامي بعد مداولات كثيرة و أخد ورد وسؤال و جواب عنزا، عنيدا، مسنا، فر ثلاث مرات منهم داخل السوق، و تسبب في هرج و مرج بالسوق، و استقتل بالدفاع عن نفسه بقرنيه حين رأى سكين الجزار تقترب من رقبته! وعند الذبح تعذب العنز المسكين كثيرا بسبب السكين التي لم تستطع حز رقبته العجفاء، المكرمشة كجذر شجرة معمرة بالسرعة المطلوبة! و أخد الجزار بعد الذبح يرتجف كأنما ارتكب جريمة و جلس على كرسي صغير يلف لنفسه سيجارة قبل أن يسلخ الذبيحة و يقطعها! و بعد الطبخ وزع اللحم على المعزين، و لم يسد الحاجة كما كان متوقعا، وبالرغم من جوع الناس ورغبتهم باللحم تركوه في صحونهم، لقسوته و مطاطيته المفرطة، إذ لم تستطع النار الشديدة، و لا كميات الخل التي دلقوها في القدر الكبير لطهيه، و بقي في الصحون مثل جزر جرداء من المرق الأحمر، دون أن يمس، فقد رأوا غيرهم ممن حاولوا معه، فقفزت القطع المطاطية إلى مكان آخر من الصحون أو إلى الأرض، و صار البحث عنها تحت الكراسي مستحيلا، و اكتفى المعزون من الوليمة بالمرق الأحمر و الرز، و بعدها قرأوا سورة الفاتحة على روح الميت، هامسين وتحدثوا عن عقوق الأولاد في هذا الزمان الرديء!

-4-

أصرت الجدة على النقاش أن يحفر على الشاهدة، التي ستثبت عند قبر الجد العبارة التي كتبتها لها على ورقة، و فيها اسم جدي وتاريخ ولادته، و وفاته و عبارة: أفنى عمره بالدفاع عن الوطن، و مات معوزا مريضا!! و لكن النقاش أفهمها أن الأوامر مشددة عليهم من الحكومة أن يكتفوا بكتابة اسم المرحوم و سنه، و آيات قرآنية و تاريخ وفاته، و أن لا يزج بالأموات في القضايا السياسية!! فالسياسة من مشكلات الأحياء لا الأموات، و بالرغم من أن العامل المسكين أظهر للجدة كومة كبيرة من الأوراق الرسمية، المختومة من جهات عديدة، ليقنعها بضرورة الالتزام بما تريده الحكومة إلا أن العجوز لم تقتنع أبدا بوجهة نظره و أتهمته بالجبن، و ممالئة الحكومة، و كان شعورها بتأنيب الضمير مؤلما لأنها لم تحقق للمرحوم أيا من أمنياته!! فدافعت عن طلبها بحرارة حتى اعتقد النقاش، و الناس أن مسا من الجنون قد أصاب الجدة، لفرط

حزنها على زوجها الميت، و حين أخذ الرجل يبتسم من أفكارها، و اتهاماتها الباطلة له، ثارت أكثر و هجمت عليه و عضته من طرف كفه، و أبعدها الناس عنه بصعوبة، و قالت:

" الكف التي تواطأت مع الحكومة، و لم تنفذ رغبة زوجي من المفروض أن تعض !! "

و أبعدها أولادها و الجيران عن الرجل، و لم تترك الجدة النقاش، و شأنه إلا بعد أن وعدها أصدقاء المرحوم أنهم سيبذلون قصارى جهودهم مع النقاش لإقناعه بضرورة تنفيذ أمنية الجد الأخيرة..!

5-

ذهبنا إلى قبر جدي في زيارة الأربعين بموكب عظيم. كانت عماتي يحملن فوق رؤوسهن قدور خبز التنور المحشو بالتمر المفرغ من النوى، و المديوف بحبة الحلوى ، و السمسم و أوراق النعناع، و من بعيد رأينا شاهدة قبر جدي الرخامية، و كانت جدتي متحرقة لمعرفة ما صنع حفار الشواهد، و حالما وصلنا أخذتني إلى مكان قريب من الشاهدة، و طلبت مني أن أقرأ ما نقش عليها، و قبل أن تنزل من عينها دمعة واحدة على الراحل! و رحت أتهجى الكلمات بصعوبة، و بعد ان قرأت الإسم قرصتني من كتفي قائلة: لا تقرأ اسم جدك فأني أعرفه قبل أن تولد!! اقرأ ما بعد ذلك! و رحت أفكك لها العبارة الإضافية التي نقشت على الرخام بخط جميل: عاش و مات فقيرا و معوزا إلى مغفرة ربه و رضوانه... شعرت جدتي بالرضى، و الراحة لتنفيذ رغبة المرحوم الأخيرة، لكنها قالت إنها غير راضية على النقاش لأنه لم يضف عبارة إنه كان مريضا طوال الوقت! و مع هذا النقص الواضح كانت راضية على النتيجة، ووالدي الذي كان حاضرا و قريبا مني في تلك اللحظة، همس بأذني أن النقاش لم يفعل شيئا ذا أهمية، و لم يخالف قوانين الحكومة، وذلك لكوننا جميعا بما فينا الأغنياء فقراء، وسنبقى معوزين إلى مغفرة و رضوان ربنا تعالى...

9

لغة العيون الخائنة..

-1-

بعد جهد ريبكومكابدة ةيقيقد استطاع أن يفتح حسابا في البنك الوطني، و لو لم تأت رسالة ابن عمه من خارج البلاد يطلب فيها منه فعل ذلك، لما فتح ذلك الحساب البنكي أبدا، فهو كما يقول عن نفسه يكره المعاملات الرسمية، و يتحاشى الأخذ و الرد مع الحكومة، و تخيفه أوراق المعلومات التي عليه أن يملأها و يضع توقيعه عليها، و التقاط الصور الفوتوغرافية المطلوبة، و في الشهر الأول تلقى على رقم حسابه الجديد حوالة مالية صغيرة، و جاءت رسالة البنك تبلغه أن مبلغا ماليا قد وضع في حسابه، وفي الشهر التالي تلقى حوالة أخرى و كان المبلغ المالي هذه المرة مضاعفا، و هكذا اخذ مبلغ الحوالة يتضاعف شهرا بعد آخر، و أخذت أرقام الرصيد تقفز بشكل مبالغ فيه، و كان البنك لا يتأخر في إرسال تأكيداته بان المبلغ المالي في الرصيد قد قفزإلى أرقام كبيرة خلال فترة و جيزة، قال بينه و بين نفسه اسأل الله أن اجتاز هذا الامتحان و يجنبني فضول الناس.

-2-

كان ابن عمه تاجرا صغيرا شارك في عمليات تجارية كثيرة، و صار في فترة قصيرة من اكبر التجار، و بالرغم من اعتقاد أصحاب البنك انه من الأغنياء الذين يعدون على أصابع اليد في طول البلاد و عرضها بسبب رصيده المالي الضخم الذي لا يعرف كيف تسرب خبره إلى جيرانه و أصحابه، و كان يتساءل عمن كان يفعل ذلك هل فعل ذلك احد موظفي البنك أو بسبب الرسائل الكثيرة التي يرسلها البنك إليه؟ و ربما وقعت إحدى هذه الرسائل بيد احد الثرثارين، فتحدث عن رصيده المالي لجميع أهل مدينته، واخذ الناس بعد هذا الثراء المفاجئ يحترمونه بشكل مبالغ فيه يشعره دائما بالإحراج، وسمعهم يتحدثون بينهم عن بساطة ملابسه، وداره الصغيرة القديمة بالرغم من ثرائه، و تقتيره على عياله، مما اضطره أن يخبرهم أن لا مال عنده غير مرتبه الشهري، وكل رصيده المالي في البنك هو في حقيقة الأمر أمانة تخص ابن عم له يعيش خارج البلاد، وكل معاناته خارج بيته كانت هينة لا تقاس بمعاناته مع أهل بيته إذ بعد أن عرفت أم عياله بالأمر استقبلته باسمة، طليقة الوجه، رشيقة العبارة، خفيفة الخطوات، وهي تلبي طلباته و قد دلقت على ثيابها قنينة عطر، و ارتدت أفضل ثيابها و رفعت صوت آلة التسجيل فصدح البيت بإرجائه بالموسيقى و

صوت أم كلثوم، حتى انه في البداية اعتقد أن البيت ليس بيته، ألا انه لاحظ أثاثهم القديم نفسه، و أن المرأة الجميلة التي يراها هي زوجته، لكن مع تحسينات كثيرة فشكلها قد تغير كثيرا فقد عقصت شعرها، و تكحلت وتمسر لها وجها جديدا غابصلأاب، و شعر انه في عرس حقيقي، وقد أطعمته بيديها أفضل الأطعمة، وكان يخيل إليه أنها تغافله بين الحين و الآخر لتهمس لابنتهما الكبرى مع غمزة بالعين ... اطعموا الأفواه تخجل العيون وبعد الطعام مباشرة، و قد ازداد صوت أم كلثوم عذوبة وعنفوانا وهي تغني عن الأمان في الإبحار في عيون المحبين ، فاجأته في الحديث عن ضرورة تغيير بيتهما القديم، الذي يسكنونه ببيت جديد أوسع مع تبديل كامل للأثاث..

فتح الرجل عينيه على سعتهما مندهشا واستنتج من دون أن يسأل زوجته أنهم عرفوا بأمر الرصيد المالي الذي في حسابه، لم يقل لها كلمة و هي تحدثه عن ضرورة مراعاة و ضعهم الجديد كأغنياء، وأولادهم الثلاثة يجلسون على المصطبة ، وقد نكسوا رؤوسهم صامتين، كأنما تعرضوا طوال عمرهم لخديعة أنهم فقراء، وان أبيهم الظالم أخفى عنهم حقيقة غناهم ، و تركهم يعيشون في أسوأ حالات الضنك و العوز و كان يقرأ في عيونهم سبابا صامتا، و جملة يا لك من أب ظالم يا أبي.. وابنته الكبيرة كانت تنتظر على أحر من الجمر اعترافه أمامهم بالغنى، و قد أخبرت صديقاتها هاتفيا أنها لن شيعت كما كانت فقيرة، بمنظرها سئابلا الذي أعدتنه، بل ستكون مشرقة بملابس مودرن، ولها سيارتها الجديدة، و سيأتي لها أبوها بالمدرسين لتلقينها إجابات الأسئلة التي ستأتي في الامتحانات، لتحصل على درجات التفوق بدلا من أن تقرف نفسها بالقراءة والسهر، وتضييع أوقاتها الثمينة كمليونيرة شابة بتفاهات مسائل الكيمياء، والفيزياء، وحفظ معلقات الشعر العقيمة، لواحد في البداية أن يقول لهم الحكاية من البداية إلا أن أحدا لم يصدق رواية أن المبالغ الكبيرة في حسابه البنكي هي مجرد أمانة، و كانوا يتساءلون، و قد ضموا أصواتهم إلى أصوات الأقرباء، و الجيران، و المعارف بسؤال مرير واحد يقول: أي معتوه في هذا الزمان يقبل أن يضع كل هذه الثروة الطائلة باسم شخص آخر حتى لو كان ابن عم له ؟ و اخذوا ينعتوه بالبخل واللؤم والخبث، و بدأت الحرب الحقيقية في بيته إذ أخذت زوجته تضع له طعامه في زاوية المطبخ، و كأنها تضعه لكلب أجرب، و أولاده اخذوا يعاملونه بجفاء، كأنما يتعاملون مع مريض بمرض معد، وهم يتحدثون عن البخل الذي يذهب بالأيمان، أما ابنته الكبيرة فقد توقفت

عن الذهاب إلى المدرسة بدعوى المرض بعد أن انفضحت أكاذيبها أمام صديقاتها، وظهرت أنها فقيرة كما كانت دائما، بذات البذلة اليتيمة الزرقاء والوجه الذابل الحزين، وكان الرجل يشعر أن عيني زوجته تطالبانه أن يخون أمانته ، وكذلك نظرات الحرمان، و اللوعة في عيون أولاده، وأخذت العيون جميعا بلا استثناء تطالبه بالاستيلاء على المال، كلها تقول له بلغة صامتة:
أسرق أموال أبن عمك .. أسرق من دون أن يرف لك جفن .. أن لم تكن ذئبا أجرد بالت عليك الثعالب.. وستبقى طوال حياتك رطبا رقفلاب وعفونته ..
تحمل الرجل نظرات العيون صابرا محتسبا، كأنه في ساحة قتال ناكو وجريح من الله في سره النصر والفرج القريب..

-3-

وذات صباح استلم من ابن عمه برقية، و بعد أن قرأها ظهر السرور على وجهه وشعر بالهموم تنزاح عن صدره مرة واحدة، ارتدى أفضل ملابسه كأنه في عيد وتوجه إلى البنك، و كعادته حين يكون سعيدا فقد اخذ يوزع ابتساماته بوجه هذا و ذاك، و طلب من موظف البنك أن يحول الأموال التي في رصيده إلى بنك آخر، وكما طلب منه ابن عمه في برقية الصباح، وباسم ابن عمه ذاته سال الموظف في حيرة: هل نحول المال هلك ؟ فأجابه : نعم، قال الموظف "رصيدك ضخم جدا... "أجابه، كأنما يريد أن يفرغ من هذا الأمر نهائيا : "المال ليس مالي و يجب أن يذهب إلى حيث يريد صاحبه "،قال الموظف و كأن المال يخصه، وقد اخذ العرق الغزير يسيل من جبهته متأملا الرصيد المالي على شاشة الحاسب الآلي، ثم تمتم بصوت خفيض : كأنني اشترك في جريمة، تريد أن تقترفها بحق نفسك كلهاأو و تساءل الرجل متعجبا :

- أي جريمة تتحدث عنها ؟ ... قال الموظف لا شيء ...

همس احد المراجعين بإذن الرجل، و قد عرف المشكلة: انك تقتله.. موظف مرتبه ضئيل، وأنت تأمر بتحويل أموالك الطائلة إلى شخص بعيد، ثم رفع الموظف سماعة الهاتف، وتكلم بصوت واطئ ثم رفع إليه عينيه، و طلب منه أن يذهب إلى الإدارة و همس : أن مدير البنك يريد أن يكلمك..
تمتم الرجل: متى ينتهي هذا الأمر ؟ مشى في الممر الضيق، ودخل غرفة المدير، بدا و كأنه كان ينتظره بادي القلق و الانفعال: هل تبعث ثروتك إلى بنك آخر و باسم شخص آخر؟ هل بينكما صفقة تجارية؟
لا ليس بيننا شيء و أنا عيد له أمواله فقط...

من يفعل هذا ؟ !!واسمح لي بقول ذلك، ليس شخصا عاديا، أنا لا أعذرك مطلقا، لأنك تبدو لي على قدر كبير من النباهة، و الذكاء، لكنك أيضا تبدو على قدر عظيم من الطيبة، التي لا تعني في هذا الزمن شيئا عظيما، أنها: غفلة، حماقة، سوء تدبير، وسذاجة ... للأسف طبعا..

سمها ما تئشد – وتذكر أنما تريد أن تفعله هو تلخيص، و تركيز لهذه التسميات القبيحة، قاطعه الرجل: هل اتصلت بكم زوجتي ؟... فهذا كلامها، كل الذي قلته هو كلامها، و أقول لك ما قلته لها:

أن المال ماله يا سيدي، و لم أكن سوى مؤتمن عليه، و سأفعل ما يريد صاحبه، و ارجوا أن تساعدوني لأفعل ذلك....

-4-

نظر مدير البنك إلى عيني الرجل، كأنما ينظر إلى عيني رجل مجنون، و قال بهدوء: نحن كبنك لا يهمنا البتة ما تتحدث عنه، وهذه المسائل المعنوية لا معنى لها في هذا الزمان، نحن نعرف اسمك، و رقم حسابك في البنك، و رصيدك المالي، و سحب مالك من البنك، و إرساله دفعة و احدة إلى خارج البلاد يمثل نكسة مالية لنا كبنك.. وحين لم يجد المدير تجاوبا من الرجل، جلس على اقرب أريكة محبطا، و تمتم: سننفذ رغبتك، لكن تذكر أنها أسوأ غلطة غلطتها في حياتك.. ثم و قف المدير وأشار له أن يتبعه، و رأى العرق يبلل صلعة المدير، و هو يسير أمامه منكس الرأس، و عندما وصل إلى بهو البنك المكتظ بالحاسبات، والموظفين أعطى الأمر للموظف المسؤول عن التحويل الخارجي، لإكمال إجراءات التحويل، و حز في نفسه أن ينتظر حتى يفرغ الموظف من أكمال ذلك الأمر الحزين أمامه فرجع إلى مكتبه، وبقي الرجل ينتظر أن تعطى له نسخة من ةقرو التحويل، ولم يطمئن إلا حينما رأى على شاشة الحاسوب أن حسابه البنكي عاد من جديد إلى ذلك المبلغ المالي الصغير، الذي بدأ به مع البنك أول مرة، وحين مر من أمام الموظفين سمعهم يهمسون، و ينظرون إليه كأنما يرون قردا، لكنه شعر انه صار خفيفا، و سيطير في أي لحظة يشاء، و تساءل: أليس اذه كافيا للفرح ؟!!

10

يوم الكلب...

-1-

الموضوع بدأ بداية بسيطة، لكنه تعقد بعد ذلك كثيرا، فقد بدأ بكلب ضال، ضخم الجثة، كما لو كان أحد الكلاب المنتشرة عادة قريبا من محلات الجزارين، كثير القروح، يتبعه جمع من الأطفال والمراهقين يرمونه بالحجارة، ويضربونه بالعصي، ويطرقون قريبا من أذنيه المتوترتين بعلب الصفيح الفارغة، وشاء الحظ العاثر في ذلك الصباح المشرق أن يكون باب دار جدي مفتوحا، وكذلك باب غرفة الضيوف لم يكن مواربا تماما، كأنما مؤامرة لئيمة، كانت تحاك خيوطها ضد أسرتنا، المسالمة، المحافظة على واجباتها الدينية بشكل صارم، ويشعر أفرادها بالنجاسة إذا مست يد أحد أطفالها كلبا على سبيل المداعبة! فتفرض عليه جدتي أن يغسل يديه سبع مرات! ! والأدهى من كل ذلك أن في اللحظة، التي دخل فيها الكلب المتوحش غرفة الضيوف، كانت جدتي تستحم في تلك الغرفة بدلا من(حمام) البيت!! لئلا تقع عليها عيون نساء أولادها، ويعرفن أن جدي، الذي لا يمل عن مضايقتها قد اختلى بها في الليلة السابقة بعد طول تمنع من جانبها، وإلحاح بغيض من جانبه ، فوقع الفأس في الرأس، كما تشير الجدة في حكاياتها لأحفادها عن شيء مشابه يقع بين الرجل والمرأة اغتصابا، ولم تشأ أن تستخدم (الحمام) فيفضحها صوت "بريمز" النفط، وهو ينفخ لهيبه الأزرق تحت قدر الماء الضخم، لقد كانت غرفة الضيوف هي المكان الذي لا يتخيله أحد، ولا يتصور أحد في رأسه عقل أن الجدة ستستخدمها كحمام، لفترة قصيرة جدا، وذلك كان غرضها الذي انفضح بدخول الكلب غرفة الضيوف! !

-2-

لكم أن تتخيلوا المنظر: كلب مطارد؛ ضخم الجثة، يدخل على الجدة المهمومة، المرتجفة من شدة البرد والخجل، الحيية دائما، التي تخاف منظر الكلاب، والقطط، وتعتقد أن الجن المؤذين قرائن لهذه الحيوانات، يدخل عليها بذلك الشكل المفاجئ! وهي تستحم خلسة في غرفة الضيوف ؟! اعتقدت في البداية إنها تحلم بأسوأ كابوس مر عليها في حياتها الطويلة، وعندما رأى

الكلب أن في الغرفة منافسا يخشى الضرر منه!! نبح نباحا عاليا، وفتح شدقيه بشكل مخيف، ولا تدري الجدة ماذا حصل لها بعد ذلك ! ! ويبدو إنها خطت خطوتها الأولى المرعوبة، فدلقت وعاء الماء الساخن، فتبلل ما في الغرفة من سجاد وأفرشة، وما أن خطت خطوتها الثانية إلى خارج الطست، الذي كانت تقف وسطه وتصب على شعرها الفضي الماء وفي فمها شتائم مرة لجدي، الذي أوقعها في هذا الإحراج المهين، فكادت أن تسقط على وجهها وينقصف عمرها، مثلما كانت تدعو الله على نفسها كلما ضاقت بها السبل واشتدت عليها الأمراض أو تعثرت بالأبناء المسالك! وبسبب الظلام والخوف تناولت سيف جدي المعلق على الحائط ، الذي ورثناه عن أحد أجدادنا، وكنا نعلقه في غرفة الضيوف للزينة، لتدافع به عن نفسها ضد الكلب ، وبسبب تجارب الكلب المأساوية السابقة مع الأطفال، وضربهم الشديد له بالعصي فقد تراجع عن طريق الجدة، فاسحا لها طريق الهروب إلى خارجها، فوجدت نفسها في باحة الحوش، عارية وبيدها السيف، مبللة، ترتجف من الخوف والبرد والخجل! ! وعيون نساء أولادها اللائي حضرن إلى مكانها بذات اللحظة تنظر إليها مشدوهة، وكانت في الأيام السابقة لا تجد أي واحدة منهن في البيت حين تطلبها في هذا الوقت! ! ورأت –ما اعتقدته- على وجوههن ضحكات الشماتة والتشفي! ! وفي حقيقة الأمر أن منظر الجدة، وهي عارية، وبيدها سيف الحديد الثقيل، الذي كان يزن أكثر من ثلاث كيلوغلرامات!! جعلهن يعتقدن أن الجدة قد جنت، أو أن الدنيا على وشك أن تنقلب! ! الوحيدة من نساء الأبناء كانت أمي، التي أسرعت إلى جدتي المسكينة لتغطيتها بعباءة سوداء لا يدري أحد من أين أتت بها، وبهذه السرعة! ! وقد كانت الجدة أثناء ذلك تشتم نساء أولادها جميعا معتقدة، أن الأمر دبر بليل ضدها، وإن إحداهن –بدافع الخبث- سهلت مرور الكلب إلى غرفة الضيوف لتفضحها، وتفرج خلق الله عليها! ! وما أن رأت الجدة العباءة تستر جسدها، وبسبب ما بذلته من جهد تناكامو ، رتوت نم هيلء عصبي، فقد تهاوت وسقطت مثل شجرة تم نحرها من الأسفل ... - واعتقدنا جميعا –نحن الذين حضرنا تلك الواقعة- أن الجدة قد ماتت! ! ولكن في حقيقة الأمر إنها كانت قد فقدت وعيها، لهول ما مر بها وبعد أن اطمأننا على حياتها من صوت تنفسها وضربات قلبها، صرخت إحدى النساء بعد أن استطلعت غرفة الضيوف لتعرف سبب رعب الجدة، فعرفت بوجود الكلب

وقد اعتقدته في البداية ذئبا! ! فتزايد الصراخ في البيت وعمت الفوضى، ولم نجد من يملك الجرأة لإخراج ذلك الحيوان المتوحش من غرفة الضيوف! !

-3-

وما أن فرت جدتي، وخلا المكان للكلب في الغرفة حتى استأسد على المطاردين، وأخذ ينبح نباحا وحشيا كلما شعر باقتراب أحد من باب الغرفة، كأنما يؤكد للجميع إنه بلغ مأمنه؛ وإنه سيموت دون المكان، وذلك أرحم من الموت في الشارع اغتيالا وتمثيلا بجثته بأيدي صبية مراهقين نزعت الرحمة من قلوبهم، وأيديهم طوال الصباح الباكر، كانت تلوح له بكل وسائل الموت وأدواته؛ من قضيب الحديد والشوم إلى الفأس، والحبال المربوطة على هيئة إنشوطات شنق، والحجارة وزجاجات الكوكا الفارغة ! ! جدي كان يشتري شيئا من الدكان القريب، عندما انتبه لمجموعة المراهقين، وهم يطرقون الصفائح ببعضها، ويصيحون على أهل داره، مطالبين بضرورة إخراج الكلب، الذي دخل إلى دارهم سهوا! !

كان يوما مربكا للجميع، فجدي يؤمن بنجاسة الكلب، والكلب لشدة ما عاناه من المراهقين بدا بمنتهى الرعب ولشدة خوفه أخذ يتبول هنا وهناك في أرجاء غرفة الضيوف! ! كان يوما لا ينسى بصخبه، وعنفه، وكثرة الحيل التي استخدمت لإخراج الكلب من غرفة الضيوف، وإعادته إلى الشارع الذي جاء منه. كان يوما من تلك الأيام التي تؤرخ بها جدتي للأحداث المصاحبة كالولادات والوفيات والأسفار بل سيكون أسم واقعة ذلك اليوم بوقعة الكلب! !

يوم ازداد فيه صراخ النساء، ومعه تزايد عدد الرجال، والشباب الوافدين من أنحاء المحلة وقد وصلتهم إشاعة تقول أن ذئبا ضخما دخل أحد البيوت، وافترس طفلا، ويوشك على افتراس باقي أفراد العائلة! ! فحضروا وبأيديهم العصي والخناجر، وعندما وصلوا وعرفوا بقصة الكلب المتوحش فعلوا ما بوسعهم لإخراج الكلب من مكمنه؛ ضربوه بالعصي فاختبأ بين الكنبات، وأخذ يهاجمهم بشراسة كلما اقتربوا منه، ثم اقترح أحد الرجال، وكنا جميعا نطلق عليه لقب "داهية الحي" لما عرف عنه من السياسة والمكر، ومعالجة الأمور بالحيلة، وكان الشباب من أهل الحي يطلقون عليه أسم الممثل المصري المعروف (عادل أدهم) الذي مثل في تلك الفترة الكثير من أدوار الكيد، وكذلك للشبه الشخصي الكبير بينهما، ونصحنا أن نقدم له لحما لاستدراجه إلى خارج

الغرفة، على أن تكمن له مجموعة من الشباب وبأيديهم العصي، ويترك باب الدار مفتوحا لتسهيل فراره إلى الخارج بلا عائق، فأخرجت أمي كل اللحم الذي تدخره في مجمدة الثلاجة من أجل الضيوف ! ! فنحن عائلة تقتر على نفسها، لكنها كريمة مع الضيوف، وتقدم كل ما تملك لضيوفها، لئلا يقال عنها ما يقلل من شأنها وسط الجيران... لكن كل تلك الإجراءات باءت بالفشل، وبدا وكأن الكلب فطن للحيلة، فاكتفى بشم اللحم، وابتعد عنه عائدا إلى مكمنه، فقال "داهية الحي" :

"أنياب الكلب توشك على السقوط من كثرة الضرب! ! وأنتم تقدمون له لحما مثلجا! ! اشتروا له لحما طريا لا يزال الدم يقطر منه، وسترون النتيجة! ! ".

ونظر أفراد عائلتنا إلى اللحم الذي شمه الكلب، وعلى وجوه الجميع تعبير واحد ينم عن الحرمان والشعور بالخسارة، فقد حرم علينا وسيرمى في سلة النفايات! ! وجدتي كانت تتابع الأحداث بعد أن أفاقت من إغمائها، كانت مشوشة التفكير وسمت الكلب ذئبا، واشترينا لحما طازجا من الجزار المجاور، وقد استغل ورطتنا فباعنا اللحم بسعر أعلى معتبرا أن لحم جزارته الطازج سيحل المشكلة، ودفعنا المبلغ المطلوب بالرغم من ضخامته، وأخذ ابن عمي لفافة اللحم، وركض بها إلى الدار، فابتعد الناس عن طريقه كما يفعلون مع رجل المطافئ، حين يسرع لإطفاء حريق في أحد المنازل، ووضع اللحم بيد داهية الحي، فأخذه وطلب سكينا فأعطاه أحد الحاضرين خنجرا، فأخذ يقسم قطعة اللحم إلى أجزاء صغيرة ووضح لأحد الشباب طريقة وضع القطع لاستدراج الكلب إلى خارج الغرفة، وتعالى نباح الكلب عندما شعر بدخول الشاب الغرفة، وأن شيئا يدبر له في الخفاء ! وبعدما أكمل الشاب عمله، انتظرنا أن تحدث المعجزة، وطال الانتظار من دون فائدة ولم يغادر الكلب المتوحش مكمنه هذه المرة، وجربنا بعد ذلك كل الخطط المعروفة لمضايقة الكلب بما في ذلك استخدام الماء المغلي معه، ولكن بلا فائدة تذكر، وفكر الجار الداهية قليلا، وقال لجدي:

"لم يبق لنا غير حل واحد! "

فسأله جدي بفمه الأدرد الخالي من الأسنـــان:

"وما الحـــــل ؟!"

نظر إلينا الجار بذات نظرة الممثل " عادل أدهم " اللئيمة، حين كان يخطط في أحد الأفلام لتهريب كمية من المخدرات لئلا تقع بأيدي رجال الشرطـة في بطون الفراخ المجمدة :

" يدخل عليه شاب شجاع، ويحمله بين يديه ويلقي به إلى خارج البيت! ! "

كان الشباب يسمعون، ما قاله داهية الحي، وبما هو معروف من اندفاع الشباب ومحاولة الكثيرين منهم إثبات جدارتهم، وشجاعتهم وهم يرون عيون الحسناوات من أهل البيت، والجيران مصوبة باتجاههم، فقد تطوع العديد من الشباب لهذه المهمة، التي بدت شبه مستحيلة ! لمعرفة الجميع بردود أفعال الحيوان حين تمسكه الأيدي، وترفعه عن الأرض، وتلقي به إلى خارج الغرفة، وكم عدد العضات التي سيعض بها حامله، أثناء ذلك وخرمشته، لصدره وذراعيه، وقبل أن يدخل المتطوعون، وأخبرهم الجار ساخرا من اندفاعهم، إنهم إذا دخلوا على الكلب المتوحش، وهم عراة فسيفترسهم قبل أن يحملوه ! وطلب من جدي عددا من البطانيات، وطلب من المنفذين أن يلفوا البطانيات حول أيديهم، وصدورهم ورقابهم. كان منظر الشباب بعد أن حصنوا أجسادهم بالبطانيات يذكرنا بمحاربي القرون الوسطى! ! وغمز الرجل الداهية لجدي، وهمس له أن يأمر النساء بالزغردة للشباب، لبعث النخوة في صدورهم وتشجيعهم، ووسط الزغاريد تقدم الشباب، ودخلوا الغرفة! ! والغريب أن الكلب المتوحش أمام إصرار الشباب على حمله استسلم من دون مقاومة لأيديهم، فحملوه إلى خارج الغرفة، وهرب الجمع المنتظر في الخارج، لجسامة الموقف وخطره، وصدرت عن الكلب نهنهة منخفضة عندما وضعه الشباب على الأرض أمام باب الدار، وتبع جمهور الهاربين، وذنبه بين قائمتيه الخلفيتين، وكان يلتفت إلى الخلف بين الحين والآخر غير مصدق بالنجاة، فعلق الرجل الداهية على ذلك ضاحكا: "هذا الكلب مثل طالب أحمق أراد أن يهرب من المدرسة فدخل غرفة مدير المدرسة! ! " وقهقه بصوت عال مثلما يفعل " عادل أدهم " عندما ينتصر في إحدى معاركه! ! وصاح هذا يوم الكلب...

11

المخطوفة..

تذكرت كلمات قليلة، فتمتمت بصوت متهدج وببطء شديد:
- أنت أبي.. وهذه أمي..
لكن الصغيرة قالت في نفسها: هذا غير صحيح، أن الرجل غير أبي الحبيب الذي أعرفه جيدا ولا تدري أين صارت أمها ؟ فهذه المرأة لا تمت لها بصلة..أنها تجيب على هذا السؤال لأن من خطفها من أهلها الحقيقيين أخافها إلى درجة، أنها أخذت تردد ما يطلب منها لترضي خاطفيها..
وكررت للمرة العاشرة:
- نعم أنت بابا وهذه ماما...
في نهار مشمس تدور الصغيرة دورة كاملة، وثوبها المشجر الواسع من الأسفل يتطاير مثل مظلة مفتوحة، وتدها جذعها النحيل، لقد اعتادت على وجودها في هذا البيت الغريب، لقد وعدها الرجل الكبير، وأقسم لها أنه حالما يذهب إلى المدينة سيأخذها معه ليسلمها إلى أمها وأبيها، وأخوتها وأنه رجل خير، وليس شريراً كما تعتقد..
الصغيرة، وهي تدور حول نفسها في بقعة ضوء الشمس بدت مثل خيمة صغيرة من الضوء، والألوان والظلال، سألها الرجل الغريب الذي يثير خوفها دائماً بلحيته النامية:
- أحفظت اسمي؟
توقفت الصغيرة عن الدوران ورفعت خصلة شعر نفرت فوق جبهتها وغطت جانبا من عينيها بأصابعها، ورددت كمن تطرد شرا عنها أسما طويلا، وعندما نجحت كما بدا للرجل أعطاها قطعة حلوى مثلما يفعل مهرج السيرك مع قرد صغير، فمضغتها ببطء، مراقبة قط البيت الأسود، وهو يدور حول قفص البلبل، والطائر يقفز من زاوية القفص إلى الأخرى، والزغب يتطاير حوله، وقد تبلل جناحاه بالماء، فبدا منظره مثيراً لشفقتها، لو لم تتركها أمها وحدها، أمام باب المدرسة، فترة طويلة، لو أنها جاءت كما تأتي باقي الأمهات لتأخذها بالسيارة

عند خروجها من المدرسة مباشرة، لما خطفوها هكذا ببساطة هؤلاء الأشرار!!

لو أنها نجت هذه المرة وعادت إلى أهلها لطلبت من أبيها أن يقطع خط الهاتف الذي تنشغل به والدتها كثيرا، فهي طيلة الوقت تتصل بصديقاتها، وتنساها ملطوعة عند باب المدرسة، ولن تنسى أن تطلب منه، أن يمنع أمها من رؤية المسلسلات التلفزيونية، التي تتابعها طيلة الوقت فتنسى موعد خروجها من المدرسة، وتتركها تحت رحمة المارين في الشارع، وهم يرمقونها بنظرات التعاطف والشفقة، وربما يصادف مرور بعض الأطفال المشاكسين في الشارع، فيعاكسونها، وفي كثير من المرات يحميها رجل مسن مار في الشارع مصادفة، من شقاواتهم وضربهم المبرح لها، حاولت أن تتذكر صوراً لأمها، ولون عينيها، ولكنها في محنتها تلك كانت ترى صوراً غائمة لأمها، بثوبها الواسع، وهي ممسكة بمغرفة الأرز، والمغرفة لا تفارق كفها، حتى وهي تتصل بصديقاتها الكثيرات أو وهي تراقب مسلسلاً من تلك الشرائط الطويلة، التي تمتد لأكثر من مئة حلقة، والمغرفة في يدها لمعاقبة أخوتها حين تحدث بينهم مشادة تمنعها من متابعة الشريط على الشاشة الصغيرة.

طرد الرجل القط بحذاء قديم ، لكن القط بقي ينتظر عند قمة الدرج ينتظر رمية الرجل ليتفاداها عند اللزوم مختفياً خلف ستارة الآجر، ليحاول من جديد مكرراً محاولاته للنيل من البلبل الصغير المحبوس، صاح الرجل على امرأة كانت في مكان ما من فناء الدار، وانتظرها حتى جاءت، قال الرجل للصغيرة :

- ومن هذه المرأة يا عزيزتي ؟

نظرت الصغيرة نحو المرأة الملفوفة بالسواد. تمتمت الصغيرة بعد صمت قصير:

- إنها أمي.

صفق لها الرجل، وأعطاها قطعة حلوى إضافية، تمتمت المرأة هامسة للرجل، وهي تمسح وجهها، كانت مترهلة، بوجه تغطيه

آثار دمامل قديمة تذكر بحب شباب كثيف، كان يغطي صفحة وجهها في سنوات المراهقة:

- ماذا تريد أن تصنع بالبنت؟ حرام عليك !

ضحك الرجل متشفياً. انصرفت الصغيرة لدميتها، والحصان الخشبي، والكرة الصفراء التي تنفخها بفمها، وقالت في نفسها، لو كان أبي مهتما بي، لو أنه جاء ليأخذني في ذلك اليوم، ولم يتركني لماما المشغولة دائما بأخوتي الصغار، والطبخ والمسلسلات، وصديقاتها، ولكن بابا دائم الشجار مع ماما وليس لديه الوقت الكافي لها.. دائما هو مشغول بالعمل، ومع أصدقائه، وتقول عنه أمي أن صديقة لديه، وهو شرير لا يراعي سنوات العشرة معها، وهو سيتزوج من صديقته تلك، وربما تزوجها من دون أن تعرف .

همس الرجل:

- ستبقين فقيرة طيلة حياتك.

ترك المرأة ومازح الصغيرة، وضعها على ظهره، وبالرغم من خوفها منه إلا أنها اعتادت اللعب معه. نسيت هلعها السابق منه، ولم تثر فيها لحيته النامية سوى الدغدغة، والضحك، نزل القط من قمة الدرج، واستقر متربصاً بشيء في حوش الدار...

وعند الدرجة الأولى من الدرج الحجري.

وفي اليوم الذي تهيأ له الرجل جيداً:

- لبس قميصا نظيفاً، وحلق لحيته وصحب معه المرأة الملفوفة بالسواد والصغيرة، وملأ جيبه بقطع الحلوى. نظفت المرأة مغرفة الأرز، وحفظتها فوق الرف، مخافة أن تصل إليها أيدي الصغار، كانت الشمس غائبة خلف ستار ثقيل من الغبار، والقط الأسودعلى السياج يتلمظ، ولم تبد الشمس للصغيرة إلا كقرص صغير بشع، يتناوب الاختفاء، والظهور بين رؤوس الرجال المعقلين، والنساء الملفوفات بالسواد، كانت تعتقد أن الغروب سيأتي قريباً لكن ذلك الغروب البشع أستمر طويلاً في المماطلة، لم يكن الوقت في الحقيقة سوى صباح يحمل سف الغبار، والرؤوس والوجوه والعيون المحدقة إلى وجهها الصغير، دلف

الثلاثة إلى المستشفى. امتلأت أنوفهم برائحة المطهرات: المرأة الملفوفة بالسواد تمسك الصغيرة من يدها، والرجل بعينيه الصغيرتين المتآمرتين دلفوا إلى ممر طويل ثم إلى غرفة صغيرة ينسكب الحليب من جدرانها.

رأت صبياً بملابس بيضاء ينام على السرير، ورأت رجلا ينام بقربه. انكمشت أول الأمر، ظنت أنهم سيستقبلونها بإبرة، لكن اطمأنت بعد فترة قصيرة، وأخذت تقترب من سرير الصبي الذي أصفر وجهه، وامتدت كفها الصغيرة صوب الملاءة البيضاء، أخرج الرجل من جيبه قصاصة جريدة، وقفت المرأة، وهي تمسك بيدها طرف العباءة بأصابع مرتجفة لمحت وجه الصبي المريض، وقد بدت عيناه مثل حفرتين داكنتين، ولفائف شعره عند مقدمة رأسه ملتصقة بجبهته، وثمة حركة بطيئة للملاءة عند منطقة الصدر، قال الرجل:

ـ جئنا لتلبية إعلانكم..

ارتبك الأب الذي وقف عند رأس الصبي، ونظر من خلال زجاجتي نظارته إلى الرجل أولاً، وإلى المرأة والصغيرة، التي أخذت تمسك الملاءة بأصابع متشنجة، أكمل الرجل بصوت مرتجف:

ـ لدينا عشرة أطفال غيرها، قلنا ننقذ حياة أبنكم ونحصل على مال يساعدنا في تنشئة الباقين!!

كانت قسمات المرأة تشير إلى أنها غير موافقة على ما يحصل أمامها، قال الرجل وهو يحرك يديه في الهواء حركات غير ذات معنى:

ـ في البداية لم توافق أمها، لكنني أفهمتها أن لا خطر على حياة أبنتنا، وكل شيء سيتم بيسر..

أدار وجهه صوب المرأة:

ـ أليس كذلك؟

اكتفت المرأة بهز رأسها إيجاباً، أخذ الرجل ينظر إلى الصغيرة، أخذت تحاول العبث بالأنابيب الكثيرة التي ربطت إلى جسد

الصبي، كانت المرأة تمنعها بين الحين، والحين بقرص زندها، قال الرجل موافقا ومستعجلا لأنقاذ أبنهً.
-أرجو أن تكون الفحوصات إيجابية بإذن الله.. أجلبتما بطاقة الصغيرة الشخصية ؟ ربما الفحوصات ستستمر لعدة أيام ..
هزالرجل رأسه إيجاباً، وأخرج بطاقة شخصية ممزقة، قال بصوت متحشرج:
- بطاقتها كما ترى غسلت مع الملابس، لكن أسمها واضح وصورتها مميزة.
وبالرغم من الألم الذي شعرته الصغيرة أثناء فحص الدم، والفحوص الأخرى الكثيرة، التي أجريت عليها في الأيام التالية، إلا أنها كانت تصمت حالما تمتد إليها يد الرجل بقطعة حلوى، مصحوبة بنظرة تهديد مخيفة من نظراته،
كانت ترى وجوهاً لرجال بأثوابهم القصيرة البيض، وهم يحاولون أكمال الإجراءات بأسرع ما يستطيعون لإنقاذ الطفل من موت محقق بعد أن وجدوا المتبرعة المناسبة، وكانت هي تناجي في سرها أباها أن يأتي لينقذها مما هي فيه من عذاب، وقررت مع نفسها أنها ستفر في أقرب فرصة وستصرخ بكل قوتها، ليعرف الناس إنها مخطوفة، وسيعيدونها إلى أسرتها، لتلعب مع أخوتها وتفرح بعودتها أمها.. وكل تلك الأفكار كانت أحلاماً لم تجرؤ على تنفيذها، ولم يتنفس الرجل الصعداء إلا يوم أدخلت الصغيرة إلى صالة العمليات لإجراء الفحص الأخير في مساء يوم كئيب، وسلمه أبو الصبي المريض كيسا مملوءاً بالمال، وبعينين دامعتين أخفت المرأة تحت عباءتها الكيس المملوء بالرزم المالية، خائفة من أن يلاحظها أحد في المستشفى، وفي الخارج كان الغبار يتجمع بفعل ريح عاصفة تمسح زوايا الأرصفة، حاملة قصاصات الورق، وأضواء الأعمدة الكهربائية تظهر مغمسة بالغبار، وحلقات نور مرتعشة تتناوب السقوط على الأرض الإسفلتية، وتصعد ثانية إلى الأعلى مشتتة كشظايا صغيرة.

مر أسبوع على ألام الاختبارات، وخلاله رأت قفص الطيور في باحة الحوش مسكوناً ببقايا الريش والدم، لقد فتك القط بالبلبل المسكين، بكت كثيراً عند القفص، دون أن يهتم أحد بدموعها، وفي نهاية ذلك الأسبوع استطاعت أن ترى من خلال النافذة قبضات الرمل الناعم، والحشرات الميتة، المتجمعة بين زوايا حديد النافذة، ورأت أشياء المستشفى اللامعة مطلية بطبقة زيت جمعت حولها خرائط الغبار ، وفكرت أنها ستموت كتلك الحشرات الصغيرة المسكينة، وكل من يدخل المستشفى ستكون نهايته كتلك الحشرات الميتة، وعليها أن تفر الآن لتنجو من الموت والآلام، وبعد الظهر أخرجت المرأة الصغيرة من المستشفى في جولة قبل إجراء العملية، رأت الصغيرة أنها الفرصة الأخيرة لتهرب أذن صارخة، و ليعرف الناس.. أنها الفتاة المخطوفة.

عند دوران الممر وازدحامه بالمراجعين أفلتت يدها من يد المرأة بعد أن عضتها بأسنانها بكل ما أوتيت من قوة، فتركت المرأة يد الصغيرة صارخة من الألم، وركضت الصغيرة بين جموع الناس صارخة أنها مخطوفة، لم تتبعها المرأة كانت خائفة من أن يصدق الناس الطفلة، ويقبض عليها وزوجها، فرأت أن من الأسلم لهما أن تعود إلى زوجها، لتنبهه بضرورة الهروب من المستشفى مكتفين بنصف مقدم الأتعاب، التي قبضوها من زبونهم ...

الصغيرة حالما وجدت نفسها في الشارع بين الناس شعرت أنها ضائعة، ولا تعرف أين أهلها وهي لن تجرؤ أن تخبر أحداً أنها ضائعة، وحده الله الساتر إذا عرفوا أنها بلا أحد كبير يرعاها، وهي هكذا في الشارع ضائعة من دون أم تمر عليها لتحملها إلى صدرها، وتأخذها إلى الأمان أو أب يقودها إلى دفء البيت. قررت أن تبحث عن بيتها من دون مساعدة أحد ...

12
خيل الحكومة.....

لم تكن المرآة تعرفه في هذا السوق المزدحم بالناس والبضائع والسيارات، اعتقدت أنها تعرفه أو أنها رأته منذ زمن بعيد، ربما رأت رجلا غيره واعتقدته هو.. ربما ... يا لهذه الذاكرة المضطربة، لا تستطيع أن تتيقن من أي وجه أو من أي شيء بعد اليوم، ألم يقولوا لها أنها مصابة بمرض..... وحاولت أن تتذكر اسمه لكنها نسيت أسم المرض أيضا، تريد الآن أن تتذكر عنوان بيت أهلها فقط ولا تستطيع:

وحاولت أن تختبر ذاكرتها بقراءة قصيدة هنري ميشو التي أعجبت بها منذ فرضها عليهم الأستاذ في درس الترجمة عن الفرنسية حين كانت طالبة في الجامعة، وحفظتها عن ظهر قلب، وكانت ترددها بين الحين والآخر خصوصا حين تتفاعل داخلها مشاعر غريبة تمتزج بين الواقع والخيال، محاولة طيلة الوقت أن تفرق بين الحلم والواقع، حاولت أن تتذكر لكنها لم تنجح، كانت فيما مضى تردد بصوتها الأبح المحبوب من قبل السامعين مقاطع القصيدة، وهي تحرك رأسها يمنة ويسرة لتنال جدائلها كسبائك الذهب الإعجاب من زملائها، وترسم على شفتيها أجمل ابتسامة ممكنة تدربت عليها طويلا أمام مرآة دولاب غرفة نومها، وكانت فيما بعد تعزيها إلى شقاوة الشباب وتطلعاته البريئة لنيل إعجاب الآخرين في الكلية والمحلة، هي الآن لا تستطيع أن تتذكر تلك القصيدة الهائلة التي يقول فيها الشاعر:

(كنت أحلم أني نائم
وبالطبع لم تنطل علي الخدعة،
إذ كنت أعرف أنني مستيقظ
إلى أن حلت اللحظة التي استيقظت فيها
فأدركت أنني كنت نائما.)

كنت أحلم أني نائم، هذه القصيدة التي حفظتها، ونلت في ترجمتها أعلى درجة بين أقراني من الطلاب وكنت أرددها منذ سنوات نسيتها أيضا، يا ألهي لقد انتهيت حقا، وكل الذي حدث لي بسبب ذلك الحب المريض الذي ربطني بعجيب، هذا الرجل العجيب حقا، الغيور حد المرض، ما أن تزوجني حتى حجبني عن الناس جميعا، حتى أنه كان يتوسل لي أن لا أذهب إلى المحلات التجارية لشراء حاجات البيت، وكان يذهب بنفسه ليقضي لي أي حاجة أطلبها، وكنت أعجب لصبره العجيب وهو يلبي جميع طلباتي الصغيرة، والكبيرة دون كلل أو ملل، وحين كنت اسأله، لماذا لا يتركني أساعده في بعض الأمور، كان يخبرني وهو يقبلني، أني حبه الوحيد ووعده الأخير، وأنه لا يطيق أن يراني أحد، وهو حريص على سعادتي وإرضائي مهما كانت الصعوبات والشدائد التي تواجهنا معا (لم أكن جميلة للحد الذي أيقظ جنون غيرة عجيب بهذا الشكل المريض ولم أكن امرأة طائشة لا تؤتمن على شرفها، وشرف زوجها فتمنع من الخروج إلى الحياة، والناس كما فعل معي عجيب، فقد ترعرعت في عائلة متوسطة الحال متدينة تحاسب أولادها، وبناتها حين يبدو عليهم أنهم على وشك خرق تقاليد الأسرة أو الخروج على ما أمر به الدين .)

كان خطئي الوحيد القاتل أني أطعت "عجيب" وغفرت له حبسي في البيت، وصدقت كلام أمي الجاهلة وأنا الفتاة الجامعية، والتي كانت تخرق لي طبلة أذني، وأنا اتصل بها هاتفيا معبرة لها عن ضيقي بهذا السجن الذي حبسني فيه عجيب، قائلة دوما بنبرة الأم الصالحة المحبة لأبنتها، والتي لا تتعب من كيل النصائح:

- الزوج المحب هو الذي يقضي جميع حاجات زوجته..
- الزوج الغيور على زوجته هو الزوج المخلص إلى الأبد...
- الزوج الصالح هو الزوج الذي يمنع زوجته من أن يراها الناس..

وتتابعت الأيام والأسابيع والشهور، والسنوات وأنا في سجني وعجيب مندوبي الوحيد إلى الحياة والناس، والعالم وبسبب عدم خروجي إلى خارج البيت، وعدم تنفسي هواء نقيا وبقائي لفترة طويلة بين جدران أربعة بدأت تسوء صحتي ويظهر الشيب في رأسي، وبدأ القلق والتوتر يسيطران على تصرفاتي، وفي بداية محنتي أخذت كل صديقة تزورني ولا أبادلها الزيارة بسبب زوجي عجيب تفتر علاقتها بي بالتدريج، وتتوقف عن زيارتي، فالعلاقات

بين الناس مثل الزرع الذي لا يحصل على العناية والسقي المستمرين فأنه يصفر شيئا فشيئا و يذبل ثم يموت...

وأخذت صاحباتي يغادرن مكانهن في قلبي واحدة بعد الأخرى، فلكل واحدة منهن مشاغلها ومشاكلها، وقد شاء الله أن لا نرزق أنا وعجيب بأطفال، والحمد لله لما فعل بنا ربنا، فهو العارف بالغيب، وعارف بما سيحل بزيجتنا، فلماذا يؤذي طفلا أو طفلين ويجعلهما ضحية زواج فاشل وعلاقة زوجية مرضية ؟ ورزقت صديقاتي بأولاد وبنات وانشغلن بما رزقهن الله عن صاحبتهن المحبوسة في دارها، حيث عجيب الذي يقول: (شبيك لبيك عبد ك بين يديك) ، بعضهن كن يحسدنني ويذكرنني بأزواجهن غير المبالين بهن، وأولادهن يمضون وقتهم هنا وهناك، وهن يتحملن كامل مسؤولية الأبناء، ابتداء من توصيلهم إلى المدرسة، وحتى انتظارهم عند باب المدرسة ومراجعة الأطباء حين يمرضون، والبحث عنهم في بيوت الجيران عندما يتأخرون في الرجوع إلى البيت، ومصاحبتهم في الأعياد، والمناسبات المدرسية، ليس هذا وحده بل ومشاركتهم شجونهم ومشاكلهم ومشاجراتهم مع أبناء الجيران ، هذا غير قضاء حاجات البيت من تسوق وشراء ملابس للأبناء وتسديد أجور الهاتف، والماء والكهرباء، وتسديد فواتير الديون، وبعضهن موظفات يؤدين كل هذه الواجبات إضافة إلى واجبا تهن في الوظيفة، وكل واحدة منهن تقول لها :

- ما أحلى وحدتك، ما أعذب سجنك الدافىء الجميل، يا ليتني كنت مثلك لأخلص من كل هذا العذاب، وهذه الهرولة التي لا تنتهي.. وهنيئا لك بكل هذا النعيم، فقد كنت خير فتاة فينا، وجازاك الله بهذا الزوج المحب، المقيم على خدمتك ليلا ونهارا لا يكل، ولا يمل كأنه عفريت مصباح علاء الدين المطيع... هنيئا لك على هذه الجنة التي تعيشين فيها.. وليت لنا مثل ما وهبك الله تعالى من زوج محب..

كانت تتحير في أن تجد الجمل المناسبة التي ترد بها على هذا السيل من كلمات الابتهاج والفرح بالخلاص من الوجبات والأعباء، ماذا تقول لهن، ومهما تقل لهن، فهي محسودة على سجنها.. فتلوذ بصمت رهيب تظنه الحمقاوات موافقة على إطراء العيش الذليل الذي تعيشه صاحبتهن المسكينة..

أخذت تشعر مع مرور الأيام بضجر قاتل، وآلام في القسم الخلفي من الرأس، وكانت داخلها رغبة دائمة للبكاء من دون سبب !!

وربما تفاجئها نوبة البكاء، وهي في وضع لا يمكن البكاء فيه، ومن يفعل ذلك يتهم بالجنون، وعندما أخبرت أمها بما يحدث لها من نوبات بكاء وضيق، اعتقدت الأم كما تظن باقي النساء غير المتعلمات أن ما يحدث لأبنتها، هو بتأثير نوع من الجن، الذي يركب الزوجات الصالحات، ولا يغادرهن إلا بعد أن يتركهن، وهن قريبات من الجنون، وعندما عرف عجيب من أمها بهذا الأمر، حتى تراخت قبضته على باب سجنها، ويا ليته لم يفعل ذلك، وبقي كما كان سجانا قاسيا حتى النهاية، فقد بدأت رحلتها الطويلة من العذاب مع أمها وصحاباتها، وممن لديهن خبرة في علم محاربة الجان وعرفت ما لم تعرفه من قبل، عرفت أن شيطانا يكلف بكل إنسان، فإذا مات أو قتل تحرر وعاش بقية حياته، وعرفت أن أعمار الشياطين طويلة جدا بالمقارنة بأعمار البشر، ولهذا قد يحضر الشيطان القرين بعد موت الإنسان، أو مقتله على هيئته بل وبصوته في الغرف الفارغة، أو البيوت المهجورة لفترة طويلة، وربما مثلت الشياطين جريمة القتل في مكان حدوثها نفسه، وقد ينجح ا لبعض في استحضار القرين لبعض من ماتوا من البشر، وهو ما يسمونه بمجلس تحضير الأرواح، وقد رأيت الكثير من هذه المجالس المرعبة، رعب ليس له مثيل تعرضت له في رحلة البحث عن علاج لمرضها، وحكايات سمعتها أغرب من الخيال كانت تصدقها حالما تسمعها فيزداد قلقها، ويزداد حالها سوءا، وكان عجيب ينظر لها نظرة اليائس كأنه ينظر إلى علبة ثقاب فارغة لا قيمة لها، وعليه أن يرميها في أقرب سلة نفايات، وكان ينتظر بفارغ الصبر اللحظة المناسبة ليطلقها، وحاولت أن تسترجع بعض الثقة بنفسها بأن قررت أن تذهب إلى طبيب نفسي لطلب العلاج ووافق عجيب على مضض ورافقها في زيارتها للطبيب وعندما عادا من الطبيب سخر منها قائلا : أن عليك أن تفرحي الآن!! فأنت حسبما أخبرك الطبيب تتمتعين بازدواج الشخصية، فأنت الآن على حد قوله.. لن تعاني بعد الآن من الوحدة في البيت .. لتصدعي رأسي بوحدتك المضجرة، وكركر ضاحكا كأنما سمع نكتة جديدة...

لم يفد الطبيب النفسي كثيرا لأن مرضها تحول فيما بدا عليها من أعراض إلى مرض عضوي، أصيبت خلاله خلايا المخ، وعندها بدأت رحلة النسيان المريرة لديها تأخذ طابعا خطيرا، وأخذت تتذكر شيئا لتنسى شيئا آخر.. تتذكر أشياء حدثت منذ سنوات وتنسى أسم الشيء الذي أخبرت به منذ لحظة، وعند

ذلك صنع معها عجيب مثلما كان يفعل بخيل الحكومة عندما تعجز عن الخدمة فقد طلقها، وهو غير أسف، هي ذاتها طلقة الرحمة التي توجه إلى الخيول العاجزة، فعادت إلى بيت أهلها مريضة، مكلومة الفؤاد ولا تذكر بعد ذلك ما حصل لها، ربما ستذكر ذلك بعد أن تتذكر أين تسكن، وما هو عنوان بيت أهلها لتعود إليه، وتقسم على نفسها أنها لن تغادره بمفردها ثانية، حتى لو شفيت من مرضها، أما الآن فعليها أن تبحث في الوجوه عن وجه تعرفه يرشدها إلى بيت أهلها وسط هذا السوق المزدحم، ربما ذلك الوجه تعرفه أنه ينظر باتجاهها ويبتسم ولكنه يمر بها دون أن يحييها، أنه لا يعرفها، وهي لا تتذكر أنها رأته من قبل يا لذاكرتها المثقوبة، التي ستضطرها يوما أن تصبح شريدة، مثل خيل الحكومة الهرمة.

13

(حكاية عبد القادر...)

وجد نفسه – كعادته في الأشهر الأخيرة الماضية – يجلس قريبا من المرأة الساذجة ذاتها، ذات العينين الواسعتين اللتين لا تقويان في العادة على توجيه النظرات إليه بشكل مباشر، لفترة طويلة بسبب خجلها الدائم من الرجال، ومنه بشكل خاص، ذات الجسد المكتنز، والأصابع المحززة بفعل استخدام سكين المطبخ لسنوات كثيرة، بشعرها الملبد المنفر، الذي تنثال منه رائحة الصابون الزهيد الثمن، وثيابها الداكنة المشتراة من محلات بيع الملابس الجاهزة، ذات الموديلات القديمة ! فكر إنه من جديد يجلس على مصطبة الحديقة العامة، وإلى جواره ذات السيدة التي تنظر صوبه بقلق، لكنه لم يعد يهمه أن يتذكر هل هي التي اختارت مكان جلوسها قريبا منه، فاحتلت المكان من دون أن تلقي عليه التحية، أم هو الذي اختار أن يجلس قريبا منها ؟!

ولا يتذكر هل قال لها شيئا محددا عن الطقس، ودرجة الحرارة المرتفعة، والرطوبة الخانقة في الهواء، وأحوال الدنيا السيئة، أو حدثها عما يحدث في بيته من مشاكل ، وإنه يكره البقاء في البيت في هذا الوقت بالذات من المساء، خصوصا عندما يكون الجو رطبا بعد غروب الشمس بقليل، وهو الوقت المعتاد، الذي تتشاجر فيه معه زوجته كل يوم تقريبا، إذا لم يترك لها البيت قبل هذا الوقت ويذهب إلى مكان أخر، تاركا لها إشعال الحرائق بالمطبخ، وهي تطهو طعام العشاء بجلبة، لتنهي هذا الأمر بسرعة، لئلا تتأخر على وقت المسلسل اليومي، الذي تتابعه في التلفزيون.

لم تكن المصطبة التي يجلسان عليها مغمورة بضوء عمود الكهرباء القريب، ولكن النور القادم من مجموعة مصابيح إعلان الكوكا والرجل المضاء في أعلى الإعلان، الذي يأكل من سندويج همبرغر، مرتديا الجنز، وبيده الأخرى زجاجة كوكا يضيء مساحة واسعة من الحديقة، وأسفل الإعلان أطفال حقيقيون يلعبون الكرة على سجادة من العشب الأصفر، الذي ذبل

بسبب ملوحة الأرض وإهمال عمال البلدية، قال الرجل محدثا نفسه بصوت مسموع : "الأطفال يمرحون، ولا يعرفون نكد الدنيا، وماذا يخبئ لهم المستقبل من مصاعب! ! "

وقال موجها حديثه هذه المرة إلى السيدة التي تشاطره المصطبة، وهو يحرك يده في الفراغ، ويفرد أصبعه أمام وجهها، كما يفعل الشعراء في المهرجانات:

"إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق !! "

ثم تنهد بصوت مسموع، محاولا أن ينقب في ذاكرته عن بقية أبيات القصيدة، لكنه توقف عن بذل الجهد، ليسمع تنهدات المرأة واستغفارها بصوت مكتوم، وسمعها تحدثه عن شخص سمع اسمه يترد كثيرا على لسانها اسمه (عبد القادر)، فاعتقد إنها تخترع سببا لتتبادل معه الحديث! ! .

نظر إليها مدققا مثلما يفعل زبون يخمن صلاحية بضاعة ما تعرض عليه لشرائها، بدت له قسمات وجه المرأة متعبة، وقد تجاوزت الأربعين من عمرها، وكان صدرها عامرا بثديين ملفوفين تحت قميصها الداكن، وخمن أنها أرضعت منهما أكثر من خمسة أطفال، فاستطالا بهذا الشكل البشع، وصارا كجواربين ممطوطين، وفيما يبدو أنها بسبب محاولات رجيم قاسية، أو أن المرأة تعرضت لأيام كثيرة من الجوع، الذي برمجه فقرها بشكل منظم، فقد تحدد وجهها بأخاديد عديدة، وبانت ثنيات في رقبتها فيها عروق زرق مكرمشة، إلا أن صوتها كان رقيقا، عذبا وهي تحدثه، دون أن تمل من ذكر أسم (عبد القادر) ، ومن حديثها عرف أن عبد القادر هو زوجها، وهو يعاني منذ شهور من مرض نفسي بسبب نقله من عمله في معمل لصناعة الجلود إلى عمل آخر أقل أجورا وأكثر بعداعن مسكنهم ! ! واستعاضوا عنه، وعن عدد من الموظفين القدماء بشباب، تخرجوا من الجامعات حديثا، وبعد أن بذل زوجها جهودا كثيرة في مراجعة رؤساء الأقسام، ومدراء الفروع، ولم يجد لدى أحد منهم استجابة لإعادة تقييم وضعه، فشعر بكآبة حادة، وآمن أن الدنيا سوداء، وأخذ وضعه النفسي

يسوء يوما بعد آخر، وظهر عليه الهزال، وكانت تنتابه ثورات عصبية تنتهي عادة بحالات بكاء تستمر لعدة دقائق ثم يهدأ بعدها، ويغرق في صمت طويل، لكنه كان كل يوم تقريبا يتصنع مشاجرة معها، بلا سبب، ولا يمل عن ذلك كل مساء ! ! وبعد ذلك يجد الكثير من الأسباب ليضرب أطفاله، ضربا مبرحا، لذا فقد قررت المرأة أن ترسل الأطفال إلى خالتهم لعدة أيام ثم أرجعتهم الخالة بعد أيام قليلة، بعد أن ضاقت بضجيجهم ومشاجراتهم المستمرة التي ورثوها فيما يبدو من شجارات أمهم وأبيهم...

بدت له المرأة حزينة ومهمومة جدا، وهي تقول إنه يعتقد أن السبب الحقيقي في مأساتهم زواجه المبكر وهو لا يزال طالبا، مما اضطره إلى قطع تعليمه الجامعي، وبحث عن وظيفة ثم جاء بعد ذلك العدد الكبير من الأطفال الذين رزقهما الله بهم، ليزداد الطين بلة! ! ثم قالت بعد أن مسحت دمعتين: "إنهم سبعة أبناء يحرسهم الله من كل عين شريرة! " وقالت مبررة هذا العدد الكبير من الأطفال، أن هذا العدد من الأبناء ليس كثيرا لسيدة من عائلتنا، فقد اعتادت نساء العائلة عدم استخدام حبوب منع الحمل، أو أي وسيلة أخرى لتحديد النسل، وهو يقول دائما أنه لولاها، والأطفال لعبر البحر إلى أوربا، حيث يترك وراء ظهره واقعهم المؤلم باحثا عن بداية جديدة هناك...

نعم كل الذي قالته هذه المرأة سمعه من قبل، لكنه لا يستطيع أن يخمن متى وأين، وتساءل بينه وبين نفسه ربما هي امرأة التقاها في شبابه، ونساها في خضم حياته المضطرب، نعم لقد سمع اسم (عبد القادر) يتردد من قبل في أكثر من جلسة سابقة، بل وفي مرات عديدة أعتقد أنه يعرفه أو يمت له بقرابة، ولكنه ردد مع نفسه:

"وما شأني أنا بكل تفاصيل هذه الحكاية المؤلمة، التي تقصينها علي كلما تقابلنا في الحديقة مصادفة ؟! "

شعرت المرأة بشكل مبهم إنها أمام انتكاسة جديدة في حالته النفسية، وستضطر إلى العودة به إلى الطبيب المعالج،

فهو لن يتحسن إذا استمر تأزم وضعه بهذا الشكل، وقالت في محاولة منها لتبدو مرحة ولتخفف من هياجه:

"هل سمعت آخر نكتة ؟! " لم يقل الرجل شيئا، فشجعها صمته أن تقول له النكتة :

"امرأة سوداء تضع حول رقبتها شالا أحمر طلبت من زوجها أن يمدح جمالها..."

فقاطعها الرجل بصوت أجش: " قال لها يا فحم يا مولع! ! " لقد سمعت منك هذه النكتة عشر مرات في الأقل ! !

قالت : لدي نكتة أخرى لم تسمعها مني من قبل...

شجعها صمته أن تقول له هامسة بأخفض مايمكنها، ليبدو صوتها أقل خشونة:

"أحد الحشاشين سأل فتاة... ما اسمك ؟

أجابت : أسماء ... فقال : يعني هذا: إنك بلا أسم محدد! ! "

غامت الأفكار في رأسه ولم يضحك، وضحكت المرأة لتشجع نفسها، فتحولت ضحكاتها المفتعلة إلى ضجيج في رأسه كقرع الطبول، وانتظرت أن يضحك لكنه لم يضحك، وهرع الأطفال السبعة الذين كانوا يلعبون كرة قريبا من الإعلان الضوئي باتجاههما، وعندما وصل أكبرهم قريبا منه صرخ بأذنه

"بابا... نريد آيس كريم! ! لقد جاء البائع الجوال ونريد أن نشتري قبل أن يغادر .."

نظر الرجل إلى الأطفال مرتبكا، وبعينين ملتمعتين قلقتين أخذ يتطلع نحوهم، ونحو المرأة، كأنما تعرض لهجوم غادر وغير متوقع، ليطلب منها المساعدة، ووقف كمن يريد مغادرة المصطبة، والحديقة، والعالم بأجمعه إن أمكن، وصرخ بالولد بصوت متشنج :

"أيها الوغد الوسخ ابتعد عني، فأنا لا أعرفك ولا اعرف أباك ولا احدا من عائلتك! ! "

ثم التفت إلى المرأة :

"أخبري أطفالك القذرين أن لا يقتربوا مني، فلست أباهم ولا أعرفهم ! ! "

جفل الأطفال وهم يستمعون إلى أقوال أبيهم، التي كررها بعصبية زائدة، وقفت المرأة بينهم وبينه، وقالت متوسلة :

"اهدأ أرجوك نحن في الشارع وليس في البيت... "

لا تصرخ بالأطفال هكذا ! ! أرجوك ! ! "

ثم التفتت إلى الأطفال، وبحثت في محفظتها عن ورقة مالية، وعندما عثرت عليها أخرجتها وأعطتها لأكبرهم :

" اتركوا أباكم الآن... إنه متضايق من الحر والرطوبة... "

أخذ الابن الأكبر الورقة المالية، ونظر بوجه أبيه المحتقن، فرأى فكه الأسفل يرتجف، وهو يصدر صوتا مسموعا... مثل المرات السابقة حين يكون مريضا جدا، كانت نظرات الأب العصبية، وحركاته المتشنجة تشي بعذابات قاسية يعاني منها، ولا يستطيع التعبير عنها، وهو ينظر إلى أبنائه، وزوجته كأنما يرى لأول مرة بشاعة حياتهم السابقة، ورداءة الدنيا من حولهم ! ! قالت المرأة: "اهدأ... سيشترون الآيس كريم، هل تريد أن يشتروا لك واحدة تبرد بها قلبك ؟! "

قال غاضبا: "لست ابنك لتقولي لي ذلك! ! وأرجو أن لا تعتقدوا أنكم ضحكتم علي (وغمز بعينه) وحصلت بسهولة على زوج في حديقة عامة، وتتوقعين مني أن أكون الحمار الذي سيجر عربتك، التي تحمل سبعة عفاريت لا يستطيع أحد أن يؤدبهم، ويوقف عبثهم ومشاغباتهم! ! إني لا أعرفكم، وأي محاولة منك لإجباري على العودة إلى البيت ستجعلني في حل من التزامي الطويل بالصمت، وسأصرخ بأعلى صوت طالبا من الناس التدخل لإنقاذي، فأنا لست (عبد القادر) ويكفي (عبد القادر) الحقيقي ما ألحقته الدنيا به من إهانات بسببكم...

وعلى عادة (عبد القادر) في الشهور القليلة الماضية عندما يتعرض لنكسة عصبية شديدة كهذه، فقد طفق يبكي بمرارة،

ويتنهد بصوت مسموع، ومن يسمعه يظن أن الرجل على وشك الاختناق....

14
زوج الأستاذة..

نبات الزعرور حين ينقل من الأرض الصخرية الجافة إلى أرض خصبة مروية سيبدل أشواكه زهورا، وهكذا أنا يا من كنت اعتقد أنني أحبها.. (سلوى) التي كنت أظن أنها شمسي التي أدور حولها، أكتشفت أنها تلك الأرض الصخرية التي تحولت فيها طوال السنوات الماضية إلى مجرد أشواك تدمي من يمد يديه إليها للتحية، وأخيرا ما أن ابتعدت عنك يا سلوى حتى شعرت بقيمة الحياة، التي كنت محروما منها، فلا يخيفني الآن فقر ولا عصابات وأتباع أصحاب الأموال والشركات ولا أفكر بالموت كل لحظة بضربة عصا أحد الشقاوات أو بطعنة غدر من احد المحكومين بالموت، ووجد فرصة بالخلاص من هذا الحكم عبر قتلي ليتم تخفيف الحكم السابق عنه إلى سنوات قليلة، ومن يصدق أن ذلك المجرم غادر زنزانة الإعدام لينفذ جريمة بحق واحد مثلي لا يعرفه، ولا تربطه به أي علاقة من أي شكل، وكيف لأحد أن يثبت حلقات الفساد الإداري في سلسلة طويلة من الحلقات الصدئة، التي تعرف عائلتك ومحاسيبها أن يخترقوها، ويطوعوها لإدخال أي حلقة جديدة من الحلقات التي تخدم أهدافهم، وحتى إذا عجزوا عن فعل ذلك بشكل مباشر عمدوا إلى الأموال فأشتروا الذمم، وغيروا الحقائق والوقائع أما ذلك البطل الذي يقف بوجوههم، فلا تخيفه سطوتهم ولا تغريه أموالهم، فإنه سيجد نفسه بقدرة قادر قد نقل إلى مكان آخر، وتم تحييده فهو ينظر ويحترق ولا يستطيع شيئا، وقد أضر نفسه ولم يفدني ولم يستفد منه الحق شيئا.

نعم يا..... التي كنت في أيامي السالفة سلواي، أنا أشعر منذ الآن بقيمة الحياة الجديدة التي أحياها بعيدا عنك، وبعيدا عن نفوذ عائلتك ومحاسيبهم، فلا يخيفني موت ولا فقر ولا فقدان جاه، بالتأكيد يا عزيزتي لن أبقى عاريا في الشتاء ولن يميتني الجوع، سأشعر مع البرد وقليل من الجوع بآدميتي التي فقدتها معك ومع عائلتك، أنني لا أتحداك ولا أتحدى عائلتك المتنفذة العريقة صاحبة الأموال، والإرث والجاه منذ مدحت باشا، ومن كان

قبله من أجدادك في العهد العثماني، نعم أنا لا أتحداكم بل أتحدى هذه النفس التي بقيت لفترة طويلة تشعر بعجزها، وقصورها وضآلتها، أمام غناكم الفاحش وجاهكم العريض وأمام المظالم التي تحدث، وأراها ولا أستطيع أن أفعل إزاءها شيئا.

شعاركم الدائم يا سلوى كان: على المرء أن لا ينهزم أبدا، والضعيف في هذا العالم مخطىء دوما.. هذا هو فهمكم للحياة، ولم يكن يهمكم أن تعرفوا أن الحقيقة تمتلك قوة التسلسل، والوضوح التي لا يمتلكها الخداع، مهما طال وقته وبعد تأريخه، وتم ترتيبه ليبدو كما لو كان صوابا، لقد خدعت نفسي طويلا، وأنا قريب منك ولم أكن اعرف أن ما هو سبب ممتاز للعيش، هو في ذات الوقت سبب ممتاز للموت، والحياة لن تكون صعبة حد اليأس حين لا يكون لديك ما تخسره..

ليمض الخريف إلى الأبد يا سلوى من دون أن أراك أو أسمع صوتك، لقد ودعت ضعفي مع تباشيره، وأنا أعرف أنه فصل الموت لا فصل الولادة الجديدة، ولكن هكذا حكم معي القدر فصار فصلا جديدا تولد فيه براعم إنسانيتي، وبواكير فتوتي وشذرات حياتي الجديدة، أنا أعرف مدى حزمك ومقدرتك، أعرف أنك تهزمين الجميع، و حينما كان يجلس أقرباؤك في الأماسي حول منضدة صفت فوقها أنواع العصائر، والفواكه الطازجة، وكنت بضحكتك المميزة عن ضحكات نساء الأسرة قاطبة وأنت جالسة بكامل زينتك وغنجك الأنثوي، المربك للرجال تسحرين الجميع، وأنت تسمعين عبارة إطراء من رجل جالس على الأرجوحة القريبة، وهو من أقربائك البعيدين، لكنه من أولئك المؤثرين في السلطة، وتحرص عائلتك في التقرب منه دائما، وكان علي الإغضاء عن وقاحاته معك، أنا الزوج الأبدي يا سيدتي، بنت الحسب والنسب، وكان علي أن لا اشك بشيء فالأعمال الوضيعة وخيانة المواثيق والمراءاة ليست من أخلاقكم بل هي من أخلاق السوقة وسليلي الفقراء والمحتاجين أمثالي، ممن تنظرون لهم نظرتكم لمن كانوا دون البشر بدرجات، ومن دون أن تتحرج مني كانت أمك دائما تشير إلى أصلي، وفصلي وفقر أهلي، كأنما تتحدث عن نجاسة ابتلت بها الأسرة، معللة كل ذلك بسبب قلبك الضعيف الذي أحب من لا يستحق الحب، فسار بطيش كمن يسير إلى الهاوية إلى من هو دون مرتبة البشر، ليبتلي أحفاد أسرة مدحت باشا بفرد جديد في الأسرة، دون مرتبة البشر وعلى الجميع أن يرفعوه، إلى مرتبة البشر على الأقل أمام الناس ليحفظوا كيان

الأسرة من النقد والتندر عليهم بالخفاء، فيقولون أسرة الباشا زوجت أبنتها في آخر زمانها إلى صعلوك، ولن أنسى يا سلوى طوال حياتي تندر عجائز الأسرة الدميمات، اللائى زين وجوههن المشدودة بعمليات جراحية كثيرة سابقة بالمساحيق بمصائر الناس الفقراء، الذين تصير مصائرهم رهنا لبعض هؤلاء، وأتعجب أن يكون الإنسان بكل هذا الشر، والمصيبة أنهن يعتقدن أنهن طيبات ورحيمات لأنهن في اليوم السابق اعطن بعض الملابس العتيقة إلى بعض المحتاجين، أو شاركن ببعض المال لدعم جهة خيرية لغرض كسب الشهرة ولجني المزيد من الفوائد التجارية لشركات أزواجهن، وأن الله تعالى سيضعهن في أوسع جناته، وأسمعهن يتحدثن في لحظات الصفاء عن أحلام الليل، فتصف كل واحدة منهن الجنة التي رأتها في حلمها وأنا أضحك في سري قالبا كل كلمة جنة إلى كلمة جحيم، مستمتعا برؤيتهن وهن بزينتهن القرقوزية تلك، وشعورهن المصبوغة بأحدث أنواع الصباغات الأجنبية، وباروكاتهن وتنورا تهن الضيقة.

تستعر جلودهن بنار الجحيم، فكم من بيت عامر خربنه بنفاقهن ونقلهن للشائعات وكلام السوء، وكم من كريم أفقرنه بوسائلهن ووسائل أزواجهن الجهنمية وكم من بريء أسندت إليه التهم الواهية، وترك يقضي بقية حياته في سجون مرعبة يتمنى فيها المرء الموت على الحياة، وبعد كل ذلك يجلس رجال وسيدات الأسرة الكريمة للكلام حول الجنة وجهنم وسفرة الحياة التي ستنتهي بهم رجالا ونساء إلى الخاتمة السعيدة في جنة عرضها السماوات والأرض، يبقون بها خالدين أبدا، وكنت كلما سمعتهم يتحدثون عن أحلامهم الكاذبة تلك أردد بصوت خفيض مقولة سمعتها من الممثل القدير يوسف وهبي في أحد أفلامه القديمة التي كنت احرص على مشاهدتها قال فيها ساخرا من الدنيا وأهلها: "يا لسخرية القدر.. يا لسخرية القدر.. "

وكانوا رجالا ونساء يقرأ ون على صفحة وجهي استهزائي من أحلامهم، وتمنياتهم ولكن بسبب نفوذ زوجتي، وأم زوجتي لا يستطيعون أن يعبروا عن اشمئزازهم من هذا الوافد الغريب، الذي يسفه أحلامهم، وينظر إليهم بعين الريبة والتربص من دون أن يكون واحدا منهم، فهو معهم دائما، وليس معهم في افعالهم، شاهد عليهم ودليل اتهام في لحظة قادمة لا يعرفون متى تأتي أو يقرع ناقوسها.. كانوا يسمونه: "زوج الأستاذة".. وكلما سمع هذا الاسم شعر برجولته تهان، وكان أكثر ما يتضايق منه حين يسمع ذلك من صديقات

زوجته، أو على لسان رجال الأسرة الذين يقولون ذلك، وفي صوتهم ما ينبىء عن استهانة واضحة بشخصه... كان حين يتطلع إليهم، وهم يلهون في النادي، أو في إحدى تجمعاتهم العائلية، أنه لن يجد أحدا بمثل مسالمتهم، وطيبتهم، وأخلاقهم الفاضلة، لكنهم في الصباح لا يتورعون عن أكل لحم الناس نيئا، برفعهم أسعار الحبوب، التي هي عماد حياة الفقراء، دون مسوغ، أو سبب غير نية تكديس الأرباح، ولايتورعون عن بيع مواد تالفة، أو في طريقها للتلف بأعلى الأسعار، دون وازع أخلاقي أو ضمير، لتوزع على التجار وبعد ذلك يتم توزيعها على بائعي المفرد ليبتلي الناس بآثارها على صحتهم ودخولهم المالية..

نعم يا سلوى أنت لم تشاهدي شيئا مما شاهدته بنفسي، لقد رأيت في يوم ما كيف دمرت عائلة بكاملها لأن صاحبها لم يكن من وسطكم، وكان يعمل لحسابه ولم يؤد لكم الرشوة المطلوبة، فاحرقتوا السوق فوق رأسه وعائلته، سبقت كل ذلك جلسة مؤدبة بريئة، تكلم فيها الجميع على أنغام موسيقية لموزارت، وشوبرت وريمسكي في النادي، الذي يسهر فيه أقطاب الأسرة الكريمة إلى ساعة متأخرة من الليل، وعندما أبديت رأيا مخالفا، نظروا إليك كأنما يشكوني إلى سيدتي، التي ستؤدبني على فضولي، وتدخلي فيما لا يعنيني، كنت لاهية في الحديث مع أمك، قال أحدهم بخبث لاحد له:

- ألا تبدل سيارتك ؟ قلت له وأنا أشعر بالإهانة:

- أنها تخص زوجتي..

ضحك بشكل لئيم، وحدجني بنظرة لن أنساها طوال عمري، وشعرت فيها سخرية مرة قاتلة:

- لديها سيارة خاصة بها، فلم لا تسجل القديمة باسمك ؟

لم أجد غير أن أردد كالأبله: أنني أستعملها بين الحين والآخر، وهي تفي بهذا الغرض فلم أبدلها ؟

وضحك الجميع بشماتة، كأنما قد نالوا من هذا الغريب.. زوج الأستاذة.. الذي دخل عالمهم من كوة الحب التي لم يحسبوا لها حسابا في حياتهم، أو في مناقصاتهم الكثيرة.. لقد ذبحوني يا سلوى ألف مرة، وهم ينادونني بزوج الأستاذة.. بكلماتهم الدبقة التي يقولونها بخبث، وكأنما لا يقصدون بالتسمية شيئا غير مهذب، ولكنهم يقصدون، ويقصدون أسمى المشاعر وأقوى العواطف، التي ربطتني بك من أول نظرة وقعت فيها عليك عيناي فيها، في

نادي الجامعة قبل سنوات كثيرة، ومت خلال ذلك ألف مرة، ولعنت أيام الكلية التي جمعتني بك، وذلك الحب الذي ظننت أنه كان متكافئا، ورائعا وسيكون سرمديا لا ينتهي أبدا، لكنه كان قشة في بحر متلاطم الأمواج، شديد الريح تهزه كلمة، وتضيعه فعلة سوء تافهة.

أنا لا أتحداك يا سلوى، فأنا لا شيء أمام ما تمتلكونه، أنا لا قيمة لي في حساباتكم التي يقرر أهميتها كبر الأرقام، ومقدار الأصفار فيها، إلى اليمين، وأنا أصفاري كلها تقريبا إلى اليسار، ولا املك في هذا العالم غير كرامة الفقراء، التي أحرص عليها حرصكم على أموالكم، وغناكم وجاهكم، هذه الكرامة التي من دونها لا أساوي شيئا، ولا أستطيع أن أعيش من غيرها ساعة واحدة.

سأواجه قدري وحدي، وليكن ما يكون، ربما ستتحملين الألأم بسببي، لكن ليس من حق أحد أن يحرمني إنسانيتي ربما سيقولون عني: إنني مجنون أو أبله، فكيف لرجل أن يترك زوجة جميلة، وغنية مثلك، ويهلك نفسه في البحث عن عمل في دولة بعيدة، وغريبة، لا يعرف أحدا فيها، ولم يزرها من قبل، بلا مال يكفي، ولا رصيد مالي في بنك يستعين به، كيف له أن يفكر بترك الجمل بما حمل، دون أن يحتال في الأقل للحصول على شيء يستعين به في حياته القادمة، أو يبني به حلمه الجديد، لن تعرفي في أي دولة سأكون أو أي عنوان لي، فأنا لا أشعر بالأمان من عائلتك، التي لها أذرع في كل مكان وتستطيع أن تضرب في كل مكان، سأبعث لك ورقة طلاقك من مكان ما، أغادره بعد أنجاز هذه المهمة، وسأنشر ما جاء في هذه الوريقات على الملأ، ليعرف الناس في الأقل مساوىء الزواج غير المتكافىء، ونتائجه النهائية، ليتجنب شبابنا أن يقعوا بالذي وقعت فيه..

أريد يا سلوى في أي وقت أن أعبر عما يجول في رأسي بصوت عال، من دون أن أخفض صوتي أو أتحاشى ذلك، خوفا من أحد غير ما تمليه علي إرادتي، وأن لا أوثر على حرية وراحة غيري من عباد الله، لن تكبلني مفاهيم الربح والخسارة التي لقنتموني أصولها، فأنا للأسف لا أتوانى عن خسارة كل شيء لأربح حريتي، وها أنا أفعل هذا بكل وضوح، وراحة بال ودون أي شعور بالخسارة، فأي امرأة أخرى سأرتبط بها أستطيع كل لحظة أن أقول لها، ما شئت ولن يكلفني ذلك سوى تحريك لساني في جوف فمي في أي وقت أشاء، يمكنني أن أبلل قدميها بدموعي دون أن أشعر بالإهانة أو الوضاعة، واقدر أن أصفعها إذا شئت، وأن تصفعني متى شاءت، دون أن يعني ذلك شيئا غير الحب،

وما يتطلبه ذلك الحب من عوامل الاختلاف والتجديد، كما الخبز يحتاج ملحا، حتى يصير طيبا مستساغا.. أجر شعرها، وترفس بطني ثم أخذها إلى صدري دون أن يعني ذلك تنازلا من أحد لأحد، أصالحها بقبلاتي، ولن ينقلب العالم أو تهتز القيم جزاء ذلك النزاع الحنون، ولن أخاف على مركز أفقده، أو مقاطعة من أحد لي نتيجة ذلك، ولن يجند أحد ليضربني، كما حصل لي بعد شجارنا الأخير، إذ أن نظر عيني اليسرى أنخفض جراء لكمة سائق أمك المحترم، نعم أنخفض بصري إلى الربع بعد تلك الضربة، التي نلتها منه بسبب كلمة قلتها لك في لحظة غضب، وما أن سمعت بها أمك منك، فسألتني أن قلت ذلك حقا، فقلت لها أني قلت ذلك في لحظة غضب، فصاحت على سائقها الغليظ القلب، وأمرته أن يؤدبني، حتى لا أقول ذلك ثانية، فضربني في كل مكان، وها هي آثار لكماته على جسدي، ووجهي واضحة، ولم تصدقي ما فعله سائق أمك بي، وحين أكدت لك ذلك اكتفيت بلومها.. لن أكرر ما قلت وألا أصبحت أضحوكة أمام الناس، والفقير أي فقير في هذا العالم لا يملك غير كرامته، وأنا لا أريد أن أهرق كرامتي في زواج تافه غير متكافىء..

سأكون أنا متى أردت، أنك تعرفين ذلك، وتتذكرين الساعات الطويلة، التي كنت أقضيها صامتا، أدخن السجائر وألوك أحزاني.. لا أشك في ذكائك لحظة، لدرجة أنني أخشاك في أوقات كثيرة، أشعر انك تحيطين بكل صغيرة، وكبيرة وتعرفين كل شيء عني، حتى انك تعرفين بم أفكر.. ربما تتركيني لشأني لبعض الوقت، لعلمك الأكيد أنك تمسكين بمفارق الطرق، ولا تشغلين نفسك بالفروع فمهما بلغت من الذكاء، فسأمر من أحد هذه المفارق، كم كان يؤرقني ذلك، ويجعلني أفكر بالخلاص من كل هذا، وأخيرا عمدت إلى تقييدي بشكل اشد، ولم تكتفي بالسيطرة على مفارق الطرق، بل أخذت تتابعين خطواتي في الفروع أيضا، وتعمدين إلى وضع الحواجز هنا والمستنقعات المصطنعة هناك، ترسمين لوحات عليها إشارات خطر كاذبة، وتتابعين هذه اللعبة الغبية معي، ربما كنت تتعمدين أن لا أصل إلى المفارق، لئلا أصطدم بك بشكل مباشر، أعرف أن لك طبيعة، وتفكير الناس الذين عشت معهم، الذين يظهرون نهاية كل مأساة، وأيديهم نظيفة، ووجوههم صقيلة كالزجاج وعيونهم كالخرز، أن الحمل يسير دائما في نفس خطى أمه، ويتطبع بطباعها، لا تقولي عني أنني رجل ضعيف، لأنني أستعمل كلمات عنيفة، حين أتحدث إلى نفسي، وهذه هي عادة الضعفاء كما تعتقدين، أرجو أن تعرفي أن حرماني من الحرية يزيد من تقديري لها، لقد

تذوقت الصبر المر، تذوقته عندكم أكثر من مرة، وكان احتمالي فوق طاقة البشر، وعرفت من خلال ذلك أن حياة عاصفة مع الكرامة يا سلوى أفضل بكثير من حياة الهدوء مع الوضاعة، جميع زملائي حين تخرجوا من الكلية ذهبوا لتأدية الخدمة العسكرية، ذهبت معهم، لكن لا أدري ما الذي فعلته أمك، أو رتبته ليتم إعفائي من الخدمة، وجاء من يخبرني أن أذهب، وأسلم ملابس الخدمة، فالدوائر المدنية بحاجة ماسة إلى خدماتي، شعرت بأصابع عائلتك الكريمة ترتب لي كل شيء.

لجهلي وضيق أفقي سررت وقتها بهذه الرعاية السامية، وربما غلبني الغرور في أحيان أخرى، وخدعت نفسي وقلت لها: أنهم بحاجة حقيقية لي... لكن الشيء الذي لم أستطع هضمه أن أعين، وأنا المتخرج حديثا من الكلية في موقع المسؤولية، التي لا يحلم بها أي خريج آخر، أمضى عقدا من الزمان في الخدمة، نعم شعرت بلعبة العائلة، وأنا أشرف من موقعي الجديد على أهم المقاولات، التي كانت تنفذها شركات العائلة مع الدولة، ووقتها كانت أسعار البترول مرتفعة وواردات الدولة بالمليارات، وكانت الدول النفطية تصرف على مشاريع عملاقة، ولا تدقق فيما تصرف، وكنت من موقعي مخولا بصرف الملايين، لقد امتلأت بالغرور، واعتقدت أني صرت واحدا منكم من عائلتك ذات الحسب والنسب، لكن للأسف لم أصر كما اعتقدت كنت أنا أبن أمي وأبي، لا أبن زوجتي وأهل زوجتي، فبقيت كما أنا وسأبقى كذلك مهما طال عيشي معكم، وما أن انخفضت أسعار البترول، واستدانت الدولة بسبب الحروب، وانخفضت العملة حتى عادت الدولة تدقق في سجلاتها، كذلك التاجر المفلس الذي يعود من جديد إلى أساليبه القديمة في التقنين والمسائلة وإيقاف المشاريع الكبرى، وخفض الأنفاق إلى حدوده الدنيا، حتى صرت عند عائلتك شيئا زائدا على الحاجة ومجرد زوج للأستاذة لا أكثر ولا اقل.. يا لسخرية القدر.. ، وفقدت ما تبقى من إنسانيتي، عندما أهانني سائق الوالدة المحترمة تلك الإهانة، التي لا أنساها أبدا، ولست حاقدا عليه، فهو عبد مأمور ينفذ ما أمرته به سيدته، ولكن لكل شيء نهاية، ولي الحق في أن أسترد إنسانيتي المفقودة، ولأنني لا أستطيع أن أفعل شيئا، وأنا تحت نفوذ العائلة فقد قررت الهجرة إلى أقصى مكان أستطيعه، وتسمح به قوانين منح الفيزا، إلى مكان ربما لا يستطيع أن يتخيل أحد أنني أستطيع أن أعيش فيه، اما أهلي فالفضل لك،

ولعائلتك، أنني قطعت صلتي بمن تبقى منهم، أرضاء لك، ولأمك، وحفاظا على أسم عائلة الباشا من أن تلصق بها تهمة مصاهرة الفقراء، ومقولة أن الأستاذة الفاتنة، سليلة الحسب، والنسب أحبت فقيرا وهبطت إلى مستواه، وقبلت الاقتران به، وداعا يا سلوى، لم يكن الذي بيننا حبا، أطلقي عليه كل الأسماء ، ولكن أرجوك، وأتوسل إليك، أن لا تسميه حبا أبدا، فالحب أروع وأطهر من كل هذا الخراب..

15

امرأة لم تخلق للحزن...

عاد زوجها في ساعة متأخرة من الليل يترنح كعادته بعد سهرة مع أصدقائه، وهي العادة الذميمة التي دأب على تكرارها في الأيام الأخيرة، و بعد أن فتح باب الشقة بمفتاحه الخاص، وسار متعثرا في طريقه إلى غرفة النوم وسقط مثل قتيل قربها على الفراش، وأخذ غطيطه يعلو بعد وقت قصير، فاكتفت- كما اعتادت أن تفعل في الأيام الأخيرة- بنزع حذائه، وفتح أزرار سترته، وتوسيع حلقة ربطة عنقه، وفي أول عودة مخمورة له قبل أيام أخبرها، أن حياتهما دمرت وأن لا أمل لهما في الوقت الحالي في الأقل، وأنه استلم نتيجة الفحص الطبي السلبية، وان أملهما في الإنجاب محدود، وقد اخبره صديقه الطبيب بعد أن قرأ التقرير الطبي، أن من الممكن أن يلج البعير من سم الإبرة بهذه النتائج من أن تحمل زوجته بهذه الحيامن الضعيفة، التي يملكها و حالما تخرج للحياة، حتى تموت متحللة إلى عناصرها الأولية، ولأن زوجها يعتقد أن نصف حياة المرأة في لسانها، والنصف الآخر في دموعها، فقد رأى من الأصوب له، كما أخبرها أن يغرق وحده في بحر الأحزان، وحتى تستمر الحياة، فعليه أن يبدد جزءا من هذه الأحزان مع شلة الأنس من أصدقاء السوء في المساء..

وكثيرا ما حاولت أن ترتب أفكارها، لتستوعب ما سمعته، لكنها كانت ترى أشياء الغرفة تتدهور كما حياتها، الدمية الصغيرة، التي وضعتها على الرف، وملابس الدمية التي تحتفظ بها في دولاب الملابس رأتها تتطاير في الغرفة،

مثل خفافيش سود، ومثل دخان يختفي متبددا من كوى الغرفة، وأعلى زجاج النافذة المحطم، الذي لم يتم تبديله منذ كسر برمية كرة من كرات أطفال الحي العشوائية.. سمعته يقول لها أو أنها ظنت أنها سمعته يقول من بين أسنانه بغضب وحقد غريبين: - لو كنت أنت السبب، فسأجد مائة امرأة أخرى غيرك، لتعطيني الولد الذي أريد..

فكرت أن الزواج مشكلة حقيقية، اختارها الإنسان وفرضها المجتمع، ولن تنسى الفيلم الذي عرضه التلفزيون قبل أيام عن أشكال العلاقات الإنسانية، قبل فرض الزواج حسب قوانين الأرض والسماء على الناس، كانوا سعداء ! هل كانوا سعداء قبل اكتشاف خطة الزواج ؟ لا تدري، ولكن ما الذي جعل الناس يوافقون على جعل الزواج الأساس، و العقدة التي تربط كل أجزاء البيت، ولولاه لأنهار كل شيء، أمن أجل فراش واحد يجمع الرجل والمرأة ؟ أو مائدة واحدة أو مصير واحد لا يتغير حتى لو كتب على واحد منهما أن يكون تعيسا، فعلى الآخر أن يشاركه مائدة التعاسة بإرادته أو من دونها ؟

تتذكر في أيام الزواج الأولى غيرة زوجها المجنونة عليها، فهو لا يطيق أن تقع عينا رجل عليها، وكثيرا ما ردد أمامها قولا لا تدري من أين سمعه: لا توجد امرأة تستطيع أن تقاوم رجلا يطيل النظر إليها..

وقالت له وقتها، أن هذا القول سخيف، ولا يعني شيئا، والمرأة أكثر حكمة من أن تفعل بها نظرة رجل ما، ما لا تريده هي في داخلها، وأن تلك المرأة ساقطة، حتى من دون أن يطيل أي رجل النظر إليها، لكنه كان يستمع إليها من دون أن يفقه ما تقول، فقد أنغر ست تلك المقولة في ضميره، وصارت جزءا من قناعاته الخاطئة، التي لا يتزحزح عنها مهما قالت له، ومهما انتقدته، وكان يبدو أن عقله مثل بيته، فهو الذي يؤثثه بالأفكار، وعلى ذوقه ولا لأحد رأي فيه ولا أرادة، وكم كافحت أيمانه العميق بمقولة، أن المرأة إذا سنحت لها الفرصة للخيانة لا تقول لا للرجل أبدا، وأنها تقولها فقط في حالة واحدة، حين لا تصير الظروف مؤاتية لها.. ولكن بلا فائدة.... فتركته لما يؤمن به، ونفذت له، كل ماطلب منها، لتحافظ على زواجها وزوجها من المواقف الصعبة، وتلك التي تسبب لهما الأزمة من دون مبرر.

كان ذلك الدبوس الذي وخز قلبها وجعلها تنزف، صمتت ولم تنبس بحرف لمدة يوم كامل، لكنها في حقيقة الأمر بقيت تنزف وتلوث كل الأشياء التي تمسكها، وتطلعت إليه طويلا، وهو يقاسمها السرير، ويحدثها في لحظات صفوه

القليلة عن أسعار السوق، ومصاعبه في العمل، ويلقي عليها نكاته الباردة، واستمرت في تطلعها صوب وجهه، وحين علا غطيطه، ورأت شعرات شاربه ترتجف بين مقطع وآخر من الشخير، حدقت بأشياء غرفة نومهما: كانت مخلوعة النوافذ، والباب والستائر ممزقة، بشعة، والأغطية اللامعة مركونة في فوضى تامة، والأشياء الصغيرة التي اشترتها لتزين بها غرفة نومها رأتها عديمة المعنى، أشياء غبية، مرمية في الزوايا بعد أن حطمتها يد قاسية، لا تشعر بهشاشة الأشياء الرقيقة، أنها تكاد أن ترى دماء قلبها النازفة، التي تلوث كل الأشياء التي تمسها.. بحثت تلك الليلة في حقيبة يدها عن بطاقة صغيرة كتبتها لها موظفة من زميلاتها في الدائرة، التي تعمل فيها، وتذكرت كل حرف قالته لها: أذهبي إلى هذا العنوان، فهو مجرب وليس كالآخرين سيعطيك شيئا تستحمين به، وستكونين أما بعد عشرة شهور في أبعد تقدير !

ثم غمزت لها صديقتها بعينها الكحيلة، وهي لا تتوقف عن نفخ العلكة بين صفي أسنانها، وحين أحدثت العلكة صوتا قالت صديقتها: ستكونين أما يا عزيزتي ويحبك زوجك حتى آخر يوم من حياته.

وفكرت أن الانجراف في هذا الطريق يعني الأيمان بالسحر، والخرافات والوقوع تحت تأثير من يدعون القدرة على علاج الأمراض النفسية بالأحجية، والبخور والتنويم المغناطيسي، وهي لا مرض لديها، ولا مشكلة، المشكلة في زوجها، فكيف يمكن أن يعالجوا زوجها من خلالها ؟ هذا لا يصدقه عقل، ولن تقبل به حتى لو ضحت بزواجها، وبقيت طول العمر بلا زوج، وأخذت تتذكر ما كان يقوله لها زوجها في الشهر الثاني من زواجهما، أنه لم يكن يحتمل كلمة واحدة من أحد، فليس لأحد عليه هذا الحق، فكيف لها أن تحدثه هكذا؟ وتطلب منه أن يخرج ومعه وعاء الزبالة عندما يخرج ذاهبا إلى عمله ليكبه في وعاء مزبلة الشارع ؟ لم يكن أحد من أهله يجرؤ ليطلب منه هذا ! ولو تلميحا، فكيف فعلت هي معه ما لم يفعله أحد قبلها؟! ثم حدثها في يوم آخر كيف أنه رآها بهذا الجمال الذي اعتقده، وكيف ظن أنها قادرة على فعل الأعاجيب، وأولى أعاجيبها أنها جعلته يلهث وراءها طالبا يدها من أهلها، وثاني أعاجيبها أنها جعلته ينام معها في سرير واحد، وهو الذي لا يطيق أن ينام معه أحد في غرفته الخاصة، وليس في فراشه، وكان كلما تخيل عدد الناس الذين ينامون معه في البيت نفسه من الأهل أخذه الأرق، وهرب من عينيه النوم ! وكلما

تذكرت شيئا عن زوجها، كلما نأت بنفسها عن فكرة الذهاب إلى المشعوذين وأهل السحر، تذكرت عصبيته كلما ضغط عليه العمل، وكثيرا ما تدور بينهما مناقشة روتينية لا إثارة فيها، كما هي العادة في حوار زوجين متفاهمين على كل شيء ثم بسرعة تتحول المناقشة إلى معركة حقيقية، وتشابك بالأيدي، وشتائم يرش بها حتى جدها التاسع عشر !

تتذكر الآن كيف أنها اعتادت الحياة مع زوجها بالرغم من عيوبه الكثيرة، والفضل في كل ذلك يعود إلى عملها، فلو لم تكن موظفة في مؤسسة إنتاجية، لما صبرت على هذا الزواج البائس، فقد اعتادت أن تعمل على مكائن يتم تغييرها بين فترة وأخرى أرضاء لأذواق الجمهور، ولمتابعة أشكال الموديلات الجديدة التي تنزل إلى السوق، وكان عليها أن تنسجم مع كل ماكينة جديدة، وان تتعرف على صفاتها، وعيوبها، وأن تحول تلك العيوب من خلال إضافات من الماكينة القديمة، إلى الجديدة إلى مزايا، وقد اعتادت أن تلصق صور الممثلين عند واجهة الآلة المقابلة للجدار، وعلقت على الجدار مرآة صغيرة، هي في حقيقة الأمر قطعة مجتزأة من مرآة كبيرة تالفة، وجدتها مع مخلفات الأثاث في زاوية المخزن، وكانت نهاية كل يوم عمل تتمرأى أمامها، وتبحث في شعرها عن شعرات شائبة، فتحرص على التقاطها بأصابعها النحيلة، وكل مرة ترى جانب الآلة الأيسر بمقابضه النافرة، المنقطة بالزيت منعكسا داخل المرآة، كانت تتضايق، وتحجب ذلك الجزء بظهرها، ثم شيئا فشيئا تعتاد الآلة الجيدة المنتصبة في مرآة زينتها. تمس بدن الآلة في الصيف، فتشعر برودة ورطوبة، فتمرر أصابعها على بطنها، وفي الشتاء تشعر برودة يقشعر لها بدنها.. في بداية زواجها كانت تنتابها الأفكار عينها، وهي تمس جسد زوجها الذي يشاطرها السرير، في البداية كانت حركة أصابعها عفوية، وأخذت تشعر بألفة لهذا الجسد الذي تمسه، ودون أن يشعر زوجها بما تفعل، وقد علا غطيطه ثم أخذت بعد ذلك تعبث كل ليلة تقريبا بعد أن ينام بشعرات صدره وذراعيه، وتملأها حركة الشعر المرتد إلى الوراء بحركة نابضية سعادة لا توصف، تجعلها تفكر بأجمل اللحظات التي عاشتها مع زوجها وتسترجعها صورة لصق صورة أخرى، وتتأوه بين الحين و الآخر.

في وقت الفراغ والآلة تدور دون إنتاج تمس معدنها بأصابعها، وتقرأ بطاقة الآلة المثبتة المكتوبة بعربية ركيكة ثم تزحف أصابعها على المعدن الصقيل، وتملأ صدرها برائحة الزيت، وقصاصات الإنتاج، التي سخنت أثناء

القطع وتمتلىء عيناها بلمعان الصواميل، والأربطة والأذرع الفضية الماسكة، وفجوات قبض المواد الأولية، وتحلم بالمطر يبلل شعرها وتسيح قطراته على وجهها، وصدرها، ويمتلىء جسدها بقشعريرة باردة، وتشعر برجفة في عمودها الفقري، وحين تذكرت زوجها، ومشاكله الصحية أغمضت عينيها..

الجسد الضخم يشاطرها السرير، وشخيره الدائم كلما أغمض عينيه، وبحثه الدائم عن وصفات دواء لزيادة فحولته، واحتفاظه الدائم بأعشاب لها رائحة غريبة، وقواقع بحرية، وأجزاء متفسخة من حيوانات، وقوارض لا تعرف أسمائها ويتمسك بتلك الأشياء التي تمقتها، ويعتقد أن فيها من القوى السحرية التي ستمكنه في ليلة من الليالي على املاء رحمها بشيء صغير يحفظ له أسمه من الفناء في عالم النسيان هذا، تشعر بألأم في رأسها، كلما تذكرت ما تقوله عائلته، وعائلتها في كل مناسبة، حين يحاولان قضاء وقت فراغيهما الممل في زيارة من زياراتهما المتكررة لعائلتيهما، لسنوات طويلة، وهي تلوك أحزانها، ولكنها قررت أخيرا أن تضع حدا لكل هذا الملل وهذا البؤس، أخيرا ستطلب منه أن يعطيها حريتها، فمن الهوان أن يكون نصيب المرأة زوجا لا تعرف عيوبه.. وأنها غير مضطرة للحزن دائما، فهي امرأة لم تخلق للحزن، ولها حياتها، التي ينبغي أن تعيشها كأسعد ما تكون.

16

بتول تحكي قصتها ...

بتول آنسة جميلة، لكنها كانت حادة الطبع، كل شيء في حياتها لايقبل اللون الرمادي، فالاشياء أما أن تكون بيضاء أو سوداء، قبيحة أو جميلة، والناس أما أن يكونوا شريرين أو طيبين ولاحد لطيبتهم، بضة البشرة، زنبقة حقيقية، لها وردتان على خديها عندما تضحك. غمازتان محفورتان بإزميل فنان أضاف إليهما أحمرار وجهها المدوَر جمالاً آخاذاً، وأسفل عينيها الواسعتين المشدودتين بوتر غير مرئي الى أذنيها، ظهرت هالتان سوداوان تدلان على معاناتها واحزانهاالمتأخرة. رقبتها الناعمة لها زغب أشقر لايرى للوهلة الاولى، ترى من خلالها العروق الزرق ظلالاً باهتة، كتوشية مما كانت تنقشه الجدات على جلودهن امعاناً في التأكيد على جمالهن وإظهاره للناظرين،

وعندما تشرب الماء توشك تلك العنق أن تشف ليرى الناس قبضة الماء، وهي تمر بدفعات صغيرة الى جوفها.. بتول بصدرها المتوثب وشفتيها الورديتين وطولها الفارع، وامتلائها المتناسق كانت امرأة (هل صارت الآنسة امرأة ؟؟؟ لا احد يعرف، فهي عروس ترملت ليلة عرسها....) لم تتجاوز الخامسة والعشرين من عمرها بعد، تبثُ حولها نداءات سرية يستقبلها الرجال بتأثر خفي، خالقة فيهم حالة مبهمة من القلق المؤذي، والسعادة الغامرة التي لا يعرفون لهاسبباً غير بهجة الجمال... تتصاعد أصوات السجينات حولها، ويسمعنها كلاما مكرراً :

[حرام عليكم هذا الجمال يذبل بالسجن ....]

فترد عليهن :

- هذه قسمتي .. (تتنهد قبل أن تكمل).. وهذا سواد حظي ...

رفضت جميع الرجال الذين تقدموا لخطبتي، متمسكة بوعود حبيبي وأخلاصه لي ..(تصمت قليلاً قبل أن تكمل بنبرة حزينة ماسحة دموعها بمنديل مدعوك .) وعندما جاءت القسمة وتزوجته، عرفت منه ليلة عرسنا أنه متزوج من ثانية، تخيلوا ما حدث لي تلك الليلة ؟ لقد جننت، وحدث الذي كان مقدراً له ان يحدث...

تكاد أن تبكي، وهي تحدثهن كيف أرتكبت جريمتها، وكيف خانتها عواطفها تلك الليلة وفعلت فعلها بعريسها، وهي الان تدفع ثمن ذلك من شبابها وحريتها، ينقلونها من سجن الى آخر، ومن عذاب العيش الذليل الى عذاب تأنيب الضمير، حيث تحولت في الفترة الاخيرة الاحداث التي مرت بها الى كوابيس تنتابها طوال الليل، حيث يأتيها [المرحوم] في بداية الليل وهو يبتسم، قائلا لها أنه كان يمزح معها، وانها فعلتْ شيئا لم يكن ينبغي أن تفعله، فتستيقظ صارخة، وتعمد صاحبات السجن الى تهدئتها، والطلب من السجانة بضرورة نقل(بتول) الى مستشفى الأمراض العقلية . ... صاحبات السجن يعرفن أن عقل صاحبتهن سليماً، لكنهن يتمنين أن يخفف الحكم عليها، لانها مظلومة مثلهن، وهذا ما يعتقدنه عن الظروف السيئة التي أوصلتهن الى هذا الحال ...

المحطة مزدحمة: باعة شواء على الارصفة. يختلط دخان مناقلهم بكوفياتهم المخططة، وأثوابهم البيض الواسعة. رجال يعومون بالدخان . عمال السكك يسرعون وبأيديهم فوانيس مطفأة، كأنهم يحملون أيقونات أثرية،

وكأن الفجرالقادم هو فجر هاته المسجونات وحدهن لايشاركهن فيه أحد... فجر خاص للمحطات المقفلة، المملوءة بالغرباء والشحاذين واصحاب العاهات والسريين والباحثين عن كرامات الاولياء للشفاء من أمراض أستعصت على الاطباء والادوية، والعباءات السود التي تخفي تحتها صرر الملابس وأكواز الماء الرطبة، الصغيرة، واحلام المسافرين وخوفهم، وذلك الشعاع الحزين الذي تبثه في الروح عيونهم ...

في العربة الثالثة التي حجزت لسجينات ينقلن الى العاصمة، وقد صحبت السجينات امرأة سمينة ترتدي زي السجانات المميز، يصحبها ثلاثة شرطة وعريف كهل، أجلست السجانة(بتول) الى جانب العربة الايمن. كان فكرها مع صوت مطرب شعبي يأتي حزينا من مذياع قريب، بدت جهشاته معبرة عن اللوعة والفقد، وبالرغم من تحذير العريف للمسجونات بعدم الاقتراب من نافذة القطار، والبقاء بعيدات عنها، وعدم النظر الى وجوه الناس في المحطات إلا ان السجينات ألتصقن بالنافذة المدرعة بالسفود الحديدية لمشاهدة المدينة التي عشن فيها قبل ان يغادرنها الى العاصمة، لتمضية باقي محكومياتهن، ولمراقبة المحطات القادمة، التي سيمر بها قطارهن السريع عندما يغادر المحطة... كن مسجونات لمختلف الاسباب: القتل ، السرقة، التهريب، وعدد قليل منهن لأسباب سياسية؛ كن باعمار مختلفة وسحنات متباينة، السمراء والشقراء، من شمال البلاد ومن جنوبه، متحفظات ومتحررات، راقصات أتوا بهن من دور الملاهي، خادمات قتلن مخدوميهن، بعضهن أكتفن بسرقة أموالهم وحاجياتهم، نساء قتلن أزواجهن، مراهقات عشقن، وقادهن ذلك العشق الى محن عديدة، آخرها محنة عربة السجن الثالثة في القطار الصاعد الى العاصمة، خليط غير متجانس في العربة –السجن- الموصدة إلا من باب واحد، جلس قريباً من الممر المؤدي إليه، وعلى مقعدين متقابلين ثلاثة شرطة، وسجانة تعدت الاربعين من عمرها، وقد بدت من كثرة أختلاطها بالمسجونات، والفترة الطويلة التي قضتها بهذا العمل سجينة هي الاخرى، لكنها كانت في ذلك الوضع، وكأنها سيدة السجينات ورئيستهن..

لو لم يقع ما وقع لما وجدتْ الجرأة، لتجلس قريبا من هذه المرأة المكتنزة الصدر، متوترة الشفتين، والتي ملابسها تعبق برائحة غريبة هي مزيج من عطر زهيد الثمن ورائحة تبغ حريفة، ولضربت صدرها بكفها وخمشت خديها،

ربما لفعلت ذلك عندما تسمع خبراً عن واحدة من اللائي بهذه الاوصاف، لكنها تجلس الان قريباً منها هادئة مستسلمة لمصيرها، تجمع طرفي عباءتها الى نصف وجهها الاسفل منفذة ما تطلبه منها، فالمرأة ـ في اعتقادها ـ أكثر تجربة وانتقلت من سجن الى آخر طوال العشر سنوات الماضية، ولا يزال من محكوميتها سنوات كثيرة كما أنها لا تخاف من أن تسمع الشرطيين سخريتها منهم، ومن ضباطهم ... تهتز العربات وترتعش الاضواء وتمر المحطات؛ محطة أثر محطة، وتجتاح العجلات الثقيلة المدوية صحراء مظلمة، واعمدة ضئيلة.. ترتج المفاصل الحديدية والوصلات. تنصت بتول لعوائه الوحشي، مؤاخية لإنصات الصحراء، وحيواتها السابتة. تلتمع في الظلام الشامل خارج عربات القطار النجوم، وفوانيس عمال المحطات بزجاجها الاخضر والاحمر، معطية الإشارة للقطار أن يغزو غزواته الليلية للقفار، والقرى الحزينة، النائمة بعد غروب الشمس بقليل، المتسربلة بضوء مصابيح باهتة، ترتعش أيضاً شعلات تنانير من خلال كوى، وفتحات ضيقة في جدران بيوت طين وفي باحاتها .

عريف الشرطة يصلي على سجادة قديمة، ومع أرتجاجات العربة وأتجاه القطار المتغير يضيع مكان قبلة الصلاة، إلا أنه يستغفر ربه، ويحرك رأسه قليلاً، وينظر بطرف عينه مستمعاً لضحكات بعض السجينات، اللائي طلقن دنيا الحشمة وسمحن لأنفسهن أن يتعاملن مع الحياة على سجيتها، وبأنطلاق تحسدهن عليه من لا تعرف ظروفهن الصعبة، ويآسهن من ممارسة جديدة لحياة الحرية مرة أخرى، يغمض عينيه استحياءً، وهو يرى احداهن تكشف له صدرها فتظهر لعينيه ساقية الصدر المنحوتة نحتاَ... حاول أن يتمتم من جديد برباطة جأش ما حفظه من الآيات القرأنية، ليتقي الفتنة ومعها الشيطان، لكنه يغفل عن الذكر لحظة، فيعاود النظر فيرى بائع الشاي، وهو يصب من الكتلي الضخم للسجينات المتضاحكات... تعوذ من الشيطان الرجيم، وعلى المشبك المخصص للحقائب فرش العريف بطانيته بعد الصلاة، وحاول أن يغمض عينيه، وبقي الشرطيون يتضاحكون، وبنادقهم بين أفخاذهم، والسجانة وضعت رأسها متكئة الى معدن الجدار وأغفت، وتعالى سعال سجينة جاف... بتول أخذت تحدق بظلام الفلاة المقطوعة، التي ترتد كل لحظة الى الخلف، ناظرة بين الحين والاخر الى ضوء المصابيح الخافت. سألتها رفيقتهاالتي تشاركها القيد

الحديدي، الذي زنر معصميهما: لماذا قتلت عريسك ؟

أنهمرت الدموع من عينيها. روت قصتها لرفيقتها، وتناثرت الكلمات بين دموعها، وجهشاتها ومسحها لمخاطها، وأستطاعت المسجونة أن تعرف ما حدث تلك الليلة، التي أعتقدت فيها بتول أن عقاب الرجل الخائن الذي ضحك عليها بكلمات الحب، والاخلاص، فوطدت النفس بالأخلاص له والتمسك به، فرفضت كل الذين تقدموا لطلب يدها غيره، وكرر على مسمعها أنها عشقه الاول، ووعده الاول، وأنها الوحيدة التي لا يرى في هذا العالم غيرها ثم يعترف لها في ليلتهما الاولى بعد الزواج، أنه لا يزال متزوجا من أخرى، فجأة قدحت عيناها بالغضب، وهي تسأل شخصاً يقبع في الظلام، ربما يقف خلف زجاج نافذة القطار: ما عقاب ذلك الرجل ؟ ما عقابه غير الموت ؟ ثم أنفجرت باكية، والقطار يدرج عنيفاً، والعربات تهتز كأنما روح القتيل تهز العربات، وتجوس فوق السقف، وتطرق جدران العربات، وبعد أن هدأت قليلاً أخبرتها، أنها لا تدري كيف واتتها الجرأة لتغرس في صدره سكين المطبخ، رآته يضحك، ويضحك من سذاجتها وغفلتها، نعم لقد تزوج الاولى لمالها، وتزوجها هي المسكينة، لجمالها ذلك هو تبريره لما حدث ....

هل هذا منطق العاقلين يا ناس ؟ !! كان يضحك وهو يراها مقبلة نحوه، معتقداً أنها آتية لتندس في حضنه من جديد، مكتفية بالبكاء مما أصابها من ألم بفعله الغادر ذاك ثم تغيرت نظرته اليها، وصارت عدائية، والسكين تنغرز في صدره والألم يزداد كلما صعب عليه التنفس...

قالت وهي تمسح دموعها ومخاطها، بقطعة قماش تمسكها في كفها، وقد هدأت تماماً بعد بكاء طويل، كأنما تطهرت من فعلها: (المحامي الذي وكلته في المحكمة، قال للقاضي: انها طعنت عريسها، لإنه قتلها.. نعم لقد قتلها، ولاذنب حقيقي للمقتول إذا أصاب قاتله من فرط ألمه..) أنفرشت احزان بتول في مساحة العربة، وتلاشت دموعها المتجمدة في الموقين وهي تستمع غناء زميلات العربة، ومشاجراتهن التي لاتنتهي، والقطار يمضي مطوحاً بأستار ليل المدن الصغيرة المظلمة، والقرى التي يمر بها ويكشفها ضوء مصباحه للرائي للحظة، لكنها كانت كافية لتلمح من مكانها دروب وشوارع تلك المدن الغارقة في الصمت والرطوبة والوحشة...

17

ألتقيت به أول مرة وقد بدا لي جائعاً، بلحية نامية وملابس رثة. كان يجلس على صفيحة زيت فارغة عند باب دكان احد ابناء أصدقائي، وقد أمسك بيده ربابة لها وتر واحد غليظ، وأخذ يحركه باصابعه، ويغني بصوت عذب :

توهمه قلبي فأصبح خده وفيه مكان الوهم من نظري أثر
ومر بوهمي خاطراً فجرحته ولم أر جسماً قط يجرحه الفكر

ثم عزف بربابته فهز وجداني، وأطلق خيالاتي واحلامي من عقالها، وبعد قليل صمت وأخذ صوته يعلو، مهدداً التجار بالويل والثبور والخسارات الكبيرة، ويطلب منهم أثناء ذلك شراء بضاعة معينة. كانت أسعار البضائع في صعود، ونزول بسبب التضخم الاقتصادي في البلاد الذي فاق كل التوقعات، لقد أخبرني إبن صديقي عندما أستقبلني:

ـلولا صوته العذب لما سمحت له بالجلوس عند باب دكاني، وكما ترى فأنه يجود علينا بين الحين، والاخر بأبيات شعرية مصحوبة بعزف ربابته .

دققت النظر في وجه الرجل: لم يبد عليه أنه من متسولي السوق الذين أصادفهم كل يوم أثناء تجوالي فيه...ضحك إبن صديقي، وهو يناولني الكرسي لاجلس قريباً من مكان جلوسه، داخل الدكان كعادتي عندما أزوره، وقبلها في ذلك الزمن الذي مضى، حين كنت أزور اباه يرحمه الله ...

جلست ورأيت صورة أبيه المعلقة تبتسم لي، ككل مرة أجلس فيها مع أبنه في الدكان، وكان ابوه يرحمه الله بشوشاً، ضحوكاً، محباً للنكتة، وأتذكر إنه كان يسافر من مدينة الى أخرى ليسرد نكتة لصديق له، أو ليستمع منه الى نكتة، وعندما مات وشيعناه ـنحن اصحابه- لم نطق جو الحزن، والكآبة في المعزى، فأخذنا نردد بعض نكاته الشهيرة، التي كان يستهزىء بها من الحياة الدنيا، ناقلين قوله (انه ألتقى يوماً احد التقاة، وكان ذلك التقي إذا صادف شيخاً بكى، وقال هذا سبقني الى الطاعة، وإذا رأى طفلاً بكى، وقال هذا سبقته الى المعصية... وبالنتيجة أنتهت حياة التقي بالبكاء من غير ان يعمل صالحاً في حياته ينتفع به الناس..) ومن النكات التي ترددت في المعزى ذلك اليوم نكتته الشهيرة: (أنه كان ببغداد امرأة ضاق بمعيلها العيش، وندرة العمل فطلبت منه أن يسافر الى مدينة أخرى باحثاً فيها عن عمل، وعندما لم يستجب لها ألحت عليه، حتى سافر فراراً من ألحاحها، وليس حباً بالبحث عن عمل،

وشاءت قدرة الله أن يرزقه هناك بعمل ووسع عليه بالرزق، فربح ألف دينار، وأشترى بما ربح ناقة، وعاد بها الى بغداد، وفي الطريق ضايقته الناقة بسبب هياجها الزائد، وعدم قدرته على ضبطها، وقيادها، وفي مرة من مرات هياجها رفسته رفسة مؤلمة، كادت أن تقتله، فتذكر زوجته التي ألحت عليه بالسفر، فأزداد غضبه منها، وحلف بالطلاق منها إنْ وصل بغداد سيبيع الناقة بدينار واحد، نكاية بزوجته اللحوحة، وعندما وصل الى بغداد ندم على قسمه، وأخبر زوجته بالقصة، فقامت الى قلادة من الزجاج الملون الزهيد الثمن، ووضعتها حول رقبة الناقة، وقالت له عندما تدخل السوق ناد عليها: من يشتري هذه القلادة بألف دينار، والناقة بدينار واحد، ولا أفرق بين الناقة والقلادة بالبيع... فجاء بدوي وأخذ يدور حول الناقة، صائحاً باعجاب: ما أجملك من ناقة، وما أ فرهك، وأحسنك، لولا هذه القلادة اللعينة في عنقك ...)

وأخذت الضحكات تتعالى من أفواه اصدقاء أبيه في المعزى، وكان أهل العزاء الذين يعرفون ميتهم تمام المعرفة يغضون الطرف عن الضحك في المعزى، فهم يعلمون أنّ ميتهم لم يحزن يوماً قط، لأي سبب من الأسباب مهما عظم، وكان يواجه الحياة بأبتسامة دائمة، وقهقهة عميقة، ونظرت الى إبن صاحبي، وقلت في نفسي : الولد سر أبيه، وقال مقاطعاً ذكرياتي:

ـ كان تاجراً وأفلس أثناء تقلبات السوق، فلم يحتمل المصيبة، وفقد عقله، كما ترى، إلا أنه يستطيع أن يتنبأ بما ستؤول إليه أسعار البضائع في السوق، وايها سيرتفع ثمنه، أو ينخفض... فدهشت ونظرت الى إبن صديقي مستوضحاً، فأكمل: الغريب في الامر أن كل ما يقوله حول الاسعار يتحقق بسرعة، ولانه مجنون فلا يصدق احد نبوء اته. وفي هذه اللحظة نادى احد عمال الدكان على إبن صاحبي، أن يأتي لينظر البضاعة الجديدة في المخزن، وكنت اعرف من تجارب سابقة لي مع والده، ومعه، أنه سيغيب عني في المخزن في احسن الاحوال، لمدة نصف ساعة، وعلي في هذا الوقت أنْ أجلس وحدي مفكراً بحالي، بعد أن تركت وظيفتي غير أسف عليها، بسبب تدني راتبها والجهد الكبير المبذول فيها، ولم يكن أمامي ما افعله غير أن أتجه الى (المجنون) الجالس في باب الدكان بفكري، وهي طريقة جديدة تعلمتها للهروب من واقعي الصعب الذي أخذ ينوء علي بثقله، ويصهرني تحته، ورحت أستروح الهدوء الخدر الذي أشعر به: قدمت للمجنون قطعة حلوى احتفظ بها في جيبي، لاعطيها لابناء اصدقائي للمجاملة، فقبلها مني وبدا عليه

السرور. (نعم عمل التضخم عمله في رواتب الموظفين، ولم يعد الراتب يكفي لشراء كيلوغرام من السكر..) وقد تخليت عن كل حقوقي التقاعدية في الوظيفة التي تركتها، وقررت أن اعمل بالتجارة كغيري من الذين استطاعوا ان يعملوا في هذا النشاط بالرغم من عدم معرفتهم بها في هذه الايام التي ضاع فيها التسلسل المنطقي للاحداث، والتغيرات في الاسواق، وهمست لابن صديقي الغائب، أني سأشارك هذا المجنون المشروع التجاري، الذي أنوي المباشرة فيه، فحبس إبن صاحبي ضحكة، وبدا لي أنه يشبه أباه، وحينما يكبت ضحكته، ويتصنع الجد، وأخبرني أنه سيبقى على أتصال بي ليعرف النتائج. همست بأذن الرجل المبارك، فقد قررت ان لا أسمي المجنون إلا بهذا الاسم، أن أتبعني... فتبعني المبارك حتى وصلنا الى بيتي، تفاجأت زوجتي برؤية المجنون الذي يصحبني، فأدخلته قبلي. نظرت زوجتي الى المجنون محتجة، قلت لها بهدوء:

- سيعيش معنا ...

صرختْ :

- " تترك وظيفتك، وتأتي بمجنون ليعيش معنا، لقد عشت طوال السنين الماضية مع مجنون دون أن ادري، كل معارفي قالوا عنك ذلك عندما تركت وظيفتك قبل أن تحصل على الراتب التقاعدي من الحكومة بفترة قصيرة . "

تحرك المبارك الى زاوية الدار، وجلس مدندناً بأغنية مركبة تشترك فيها كلمات من اغنيات لعبد الحليم حافظ، وفريد الاطرش، وأم كلثوم، بمصاحبة نشيطة لأنغام الربابة الحزينة، وكدت أنفجر ضاحكاً من ذلك الكوكتيل الغنائي العجيب، قلت لزوجتي محاولاً تهدئتها: حبيبتي ونبض قلبي.. أخيراً حصلنا على الدجاجة التي تبيض ذهباً. سترين، يا حبيبتي العجائب ، وقبل ذلك أرجو أن تعدي للمبارك الحمام ليستحم ثم قلت بطريقتي الاحتفالية، التي تحبها زوجتي كثيراً: وبعد ذلك سنرى ماذا اعدت جميلة الجميلات لنا من طعام لذيذ للغداء ؟ قالت مصممة: لن أعد الحمام لاحد، ولن اعيش مع هذا المجنون تحت سقف واحد أبداً... وقد نسيتْ حكمة الصبر عليّ عندما أصمم على أمر معين، وكأنها غير المرأة التي عشت معها أكثر من عشرين عاماً، ولي منها أبنتان متزوجتان، وعلى وشك أن تضعا مولودين فنصير أجداداً، ثم لعلع صوتها كأطلاقات الرصاص: -

-أنا أو هذا المجنون .. هذا جنون لايطاق، لايطاق حقاً ..

شعر المبارك بالخوف من صوتها العالي، فأخذ يبكي، فأشتد غضبي على زوجتي، وقلت لها وانا أكاد أنفجرمن الغضب: لقد أخفت المبارك، وكررت المرأة بعصبية بالغة: أنا .. أو هذا ؟ قلت مصمماً: إذا كان ثمة خيار، فأنا أختار هذا المبارك ... فأخذت عباءتها، وخرجت من الدار لا تلوي على شيء متمتمة: أنا وأنت ولا نستطيع أن نشبع في هذا الغلاء الكافر، فتكحلها بمجنون ؟ عندما تركتني وحدي مع المبارك شعرت بالارتياح .

أدخلته الى الحمام للاستحمام، وحممته بيدي، وحلقت له ذقنه وألبسته من أفضل ثيابي واطعمته، وبعد ذلك أصطحبته الى الحلاق القريب ليقص له شعره، وأفهمت احد جيراني بأن المبارك احد أقاربي، وكنت أعرف أن ذلك الجار سيشيع قرابتي هذه الى جميع الجيران، وحالما جلست والمبارك بعد العشاء، وهو في أحسن حال حتى أخذ يردد: الفصولياء والعدس سيرتفع ثمنهما عما قريب، ثم أخذ يغني أغنياته المركبة، وبعد فترة قصيرة تعب المبارك من ترديد الاغنيات، ونبوءات السوق وبدأ يتثاءب، ففرشت له أفرشة المنام في غرفة مهجورة في أعلى الدار، وأفهمته أنها غرفته .

لم أترك الوقت يمر، أتفقت مع بائع جوال أعرفه أن يشتري ما أملكه في منزلي من أثاث وأجهزة كهربائية: الثلاجة والمجمدة وأجهزة التكييف، والتلفاز وغرفة الاستقبال، وغرفة النوم والغسالة الكهربائية، واشياء كثيرة، وتجمع عندي مبلغ لا بأس به كبداية للاشتغال بالتجارة، وفي اليوم التالي أشتريت بالمبلغ الذي جمعته ما وجدته في احد الدكاكين من أكياس حبوب الفاصولياء والعدس وأخفيت تلك الكميات في داري ، وبعد يوم واحد ، وقد أمضيته في التمعن بما يقوله المبارك ، والاستمتاع بسماع أغنياته المركبة.. كانت أسعار الفاصولياء، والعدس، قد تضاعفت عدة مرات، وقبلت المبارك بين وجنتيه من فرط سروري، واسرعت الى السوق ببضاعتي، وبعتها بأضعاف المبلغ الذي أشتريت به، ثم حين عدت الى البيت وحقيبتي ملآى بالمال سمعت المبارك يتحدث عن السجائر مع نفسه، ويردد أن أسعارها سترتفع، فخرجت مرة ثانية وتوجهت الى السوق، واشتريت بكل المال الذي معي أنواع السجائر الرائجة بالسوق، وحملت البضاعة الى البيت،وامتلأ بيتي بمغلفات السجائر، وما أن جلست في البيت أطعم المبارك بيضتين سلقتهما له، وهو يسمعني مقاطع من أغنية(انت عمري)، لكنه أنقطع عن الغناء فجأة، وسألني سؤالاً لن

أنساه طيلة حياتي، لقد قال متصنعاً الهدوء والعمق، والبساطة: ما هدفك من جمع المال الكثير ؟ أبتسمت، وقلت في نفسي: (المبارك أحمق ولا يعرف فوائد المال ...) وقلت له: أريد أن أكون أغنى الاغنياء ... لم يجبني، وبدلا من أن يكمل أغنية أنت عمري لأم كلثوم، حتى طفق يبكي بدموع غزيرة وهو يردد : لا . لا ... عدة مرات .

في الصباح تحققت نبوءة المبارك وارتفعت أسعار السجائر بشكل لم يتوقعه احد، وبعت بضاعتي بمبالغ مضاعفة ولأن مالاً كثيراً ربحته، فلم أستطع أن احمل كل ذلك المال الى بيتي، فاستعضت عن ذلك بإن وضعته في حسابي في المصرف القريب من السوق، وهرعت الى المبارك وسمعته يردد: السكر ... السكر ياصاح ... كان السكر منخفض الثمن بالرغم من ارتفاع أسعار المواد الاخرى، إلا أنه لم يحقق قفزات كبيرة منذ مدة طويلة ، ومع هذا ذهبت وأشتريت بمالي كله الكثير من السكر ،وخزنته في احد المخازن التي قبل صاحبها أن أكتريه منه، وخلال شهر واحد لم أكن اعرف فيه نهاري من ليلي صرت من الذين يملكون الملايين، وقررت أن ألتفت الى نفسي، وبالرغم من أنني أستعدت أثاثي إلا أنني شعرت بأن البيت لم يعد واسعاً بما فيه الكفاية فأشتريت فيلا واسعة بحديقة ومسبح، واخذت معي المبارك، وعندما جاءت زوجتي باكية طالبة أن أصفح عنها قلت لها: أخيراً اقتنعت بالعيش مع مجنونين... فهزت رأسها موافقة، وذرفت الدموع أمامي لكن بسبب الملايين الكثيرة التي أملكها، ولعدم وقوفها معي في أول الطريق كما كنت اعتقد، والمتع التي أتخيلها من دونها ومن دون قيودها، كل تلك الأمور جعلتني أرمي بيمين الطلاق عليها، دون أن يرف لي جفن فقد حولت الملايين التي جاءتني بسرعة، ودون تعب حقيقي قلبي الى حجر، وناولت تلك المرأة التي كانت في يوم من الايام حبيبتي، التي لا أبدلها بأموال الدنيا حزمة من ورق النقد تعوضها السنوات، التي قضتها معي ، فرمتها بوجهي، وتركتني وحدي مع المبارك وخرجت .

أشتريت أفخم السيارات، وتزوجت أجمل النساء، مرة ثانية وثالثة، ولم أقنع بالنوم في الفيلا الواسعة بل أخذت أقضي ليالي في أفخم الفنادق، وكان المبارك يصحبني أينما ذهبت، وكنت أخبر الموظفين عندي بتوجهات السوق، وفي المساء يحملون لي سجلات الحسابات لارى كمية الاموال التي ربحناها، ومللت الاتجار بعلب الكبريت، والبيض، وشفرات الحلاقة والاسمنت، والعقارات، إذ لم

تشعرني تلك الاشياء بروح المغامرة، وفي ليلة من الليالي أيقظني المبارك ليبلغني بضرورة الاتجار بالكلى وقناني دم البشر، وبالرغم من أشمئزازي من هذا النوع من البضائع، إلا أنني دخلت هذا المجال من التجارة وأخذ وكلائي المنتشرون في البلاد إغراء الشباب لبيع كلاهم، أو قنان من دمائهم، ليشحن بعد ذلك كل ما أشتريناه، ليباع الى دول العالم المختلفة.... و في احدى الأماسي، وانا جالس في شرفة قصري، وانا ألوم نفسي للمنحى الجديد الذي قادني دون أن أشعر الى كل ما كنت أدينه، وأدين فعله في الحياة، وأني تركت الرغبة الشديدة في الحصول على المال تقودني، لأنحدر الى هذا المنحدر القذر، وفجأة رأيت المبارك يشهر بوجهي مسدسي الضخم، وقد نسيته ليلة الامس قريباً من فراش نومي... قال بهدوء : الان ستموت .. لقد أخذت أموالي وتركتني مفلساً ... وعلي أن أنتقم منك !!

قلت له : كل أموالي سأكتبها بأسمك ، ولكن أترك المسدس أرجوك .. لكنه لم يفعل ، وقلت في نفسي ، ما فائدة المال ولن ينقذك كل عقلاء العالم من جنون مجنون، مهما أعطيتهم من أموالك.. حاولت أن أهجم عليه، فأطلق الرصاص عليّ بغزارة، وفي هذه اللحظة صاح بي إبن صاحبي، وهو يعود من مخزن الدكان، ويهز كتفي: هل نمت ..؟ تركتك نصف ساعة فقط، فلم تضعها سدى فيما يبدو، ما أكثر شبهك بصاحبك يرحمه الله، نظرت حولي، كان المجنون عند باب الدكان يصلح ربابته و يغني مبتسما:

ودب هواها في عظامي فشفها- ---------- كما دب في الملسوع سم العقارب

فحمدت الله في سري لأني فقير، وإن كل الذي رأيته كان كابوساً ...

وأبتسمت بوجه إبن صاحبي وأنا سعيد، وتمتمت : الحمد لله .. الحمد لله ...

18

عروس لا تجيد الرقص...

قالت مراقبة الإنتاج في المعمل، وهي تضع في فمها لقمة صغيرة أثناء فترة استراحة تناول الفطور:

- يوم الخميس لا أجد رغبة حقيقية في الذهاب إلى البيت !...

ضحكت سندس، وهي تنظر بطرف عينها صوب المهندس الشاب الجديد :

- وأنا كذلك.. غداً العطلة ما أحلاه من يوم ! .. لن نذهب اليوم عند انتهاء العمل إلى البيت ... ما رأيكما ؟!...

قاطعتها العاملة الثالثة، وقد بان وجهها أكثر جمالا بالنمش الخفيف، الذي حاولت معه من قبل بمساحيق دوائية كثيرة من دون أن تنجح في إزالته، وبدت بعينيها الواسعتين، واستدارة وجهها، وأنفها الدقيق المرسل في استقامة أكثر أنوثة من الآخر تين. كان المهندس الشاب يقارن بين نوعين من الإنتاج أمامه، وبين الفينة والفينة يلقي نظرة على ساحة القسم المملوءة بالعاملين والعاملات، وينظر بشكل محدد صوب وجه سندس، الذي أستلطفه أكثر من أي وجه آخر في حياته:

- وأين نذهب يا مجنونة ؟!

صمتت سندس لحظات قبل أن تجيبها :

- إلى أي مكان آخر غير بيوتنا ...

نظرتا صوب زميلتهما مراقبة الإنتاج، التي كانت تلوك طعامها ببطء من دون شهية حقيقية.. سمعتاها تقول ببطء كما لو كانت تكز على أسنانها :

- سنعود إلى بيوتنا مثل كل يوم.. سنبقى نتحدث حول أفضل الأمكنة التي سنذهب إليها.. سنتحدث كثيراً، ونختلف وربما نتشاجر، وحين تجيء لحظة الانصراف، ونسمع جرس المعمل الكبير يرن سنهرع كفئران التجارب معصوبات العيون، إلى دورنا: إلى الغسيل المؤجل طيلة الأسبوع، إلى الطعام الذي علينا أعداده للأيام المقبلة لنحفظه في مجمدة الأطعمة، إلى الشجارات المؤجلة مع الأهل والأخوة والأزواج.. سنعود إلى هناك، كأنما يربطنا شيء لا نراه، ويلصق بأقدامنا، ويقودنا إلى عتبات البيوت.. قالت لها صديقتها ذات النمش:

- كل هذه الأفكار، لأنك تقرأين روايات وكتباً أكثر بكثير من مستوى تفكير أي عاملة مثلك..

- آه لو تقرأن قليلاً لعرفتن كيف يعيش الناس ؟ !!

- أننا نراهم حولنا ولا نحتاج أن نراهم على الورق..

- القراءة شيء آخر.. (وابتسمت)

حين تتوقف ماكنة الإنتاج لفترة طويلة بسبب تكدس الإنتاج أو لعطل طارىء، أو لانقطاع التيار الكهربائي، و عدم دوران مولدات الطاقة الكهربائية البديلة، لسبب أو لآخر، و يبقى التوقف لحين قيام المهندس الخافر بتشغيل مولدات الديزل الضخمة. تتجمع العاملات إلى منضدة صغيرة تصف فوقها عينة من الإنتاج اليومي، و بالرغم من ضجيج المكائن الأخرى تحت السقيفة المضاءة بصفين من النيونات إلا إن العاملات الثلاث يتبادلن النكات، و التعليقات أو يتحدثن في موضوع ما أو يجلسن صامتات يحدقن بعربة مخلفات الإنتاج، التي يدفعها المنظف ذهابا وجيئة على طول أرض الممر المحصور بين صفي المكائن المسرعة في دورانها، الضاجة بأصواتها، مثل متسول يجمع العطيات من الآخرين، و حين يمر مسؤول المعمل عبر الممر، المؤدي إلى سقيفة المكائن ينتقل خبر مروره بإشارات متفق عليها مع العمال في الأقسام الأخرى، فتترك العاملات الثلاث مكانهن الأثير، حول منضدة عينة الإنتاج اليومي و يتفرقن بين لوالب الماكنة المنتشرة إلى اليسار و اليمين، و دواليبها، أو حول أحزمتها الناقلة، المتحركة نزولا و صعودا، أو يجتمعن عند تكية الماكنة الخشبية، حيث تقف عادة مراقبة الإنتاج التي تراقب سير المنتوجات، و توجه ملاحظاتها للعاملتين حول ضبط بكرات خاصة بالإنتاج، و تنظيم الضغط و البخار، و ملاحظة إزاحة العجلات الصغيرة الحاملة لمناضد المواد الأولية، و تتحكم بأزرار كهر بائية وامضة، لموازنة سطح المنضدة، و جعلها تلقم فوهة الماكنة المستطيلة بالمواد الأولية، قبل النزول ستارة الزجاج، و بالرغم من مساحيق التجميل الكثيرة التي تضعها مراقبة الإنتاج على وجهها كل صباح إلا إنها لا تستطيع أن تخفي شحوبها الدائم، و قد أخبرها طبيب المعمل عدة مرات بضرورة الاهتمام بأخذ وجبات غنية بمادة الحديد إلا أنها تابعت حياتها العادية في المجيء إلى المعمل دون فطور، و توقفت عن زرق الإبر التي عينها لها الطبيب.

كانت تجيء كل صباح، و بيدها لفافة طعامها التي أعدتها أمها في الصباح الباكر: قطعة خبز، بيضة مسلوقة، حبة طماطم، وفي أحيان كثيرة حين يشح البيض في السوق تستبدل الأم البيضة بحبة بطاطس مسلوقة، وفي أحيان كثيرة تعود مراقبة الإنتاج إلى البيت دون أن تمس لفافة طعامها، وتنهد على فراشها طالبة النوم دون طعام من غير أن تنصت لشكاوى أمها أو تسمع حكاياتها

الكثيرة، حول المشاكل التي أفتعلها أخوتها مع أبناء الجيران، تستيقظ بعد منتصف الليل بقليل، وهي تشعر بجوع خرافي، فتقودها قدماها إلى المطبخ، فتضيءالمصباح المعلق وسط المطبخ، وتأكل كل ما تصادفه في ثلاجتهم الصغيرة من بقايا طعام أخوتها، وتنصت لصوت أمها، الذي كان يحذرها من الطلاق، وينبهها إلى أنها ستغدو بعد الطلاق شجرة مهملة لا يسقيها أحد، وستكون جذعا أجرد بعد سنوات قليلة.. فهل هي الآن حقاً امرأة لا يسقيها أحد ؟! لكن نبوءة أمها لم تتحقق، فهاهي تطل في المرآة لترى وجهها، الذي لا يزال فتياً وروحها المتوهجة، والروايات الممتعة، التي تقرأها وحريتها التي تشعر بها، ونظرات الرجال التي تخترقها اختراقاً كل صباح، لكنهم لا يقتربون منها، ولا تعرف السبب، ربما قالت أمها السبب من دون أن تصدقها، تتذكر أنها قالت لها: يا ابنتي أنهم يخشون المطلقة.. يخافون امرأة لها تجربة حياة سابقة ..

ولكن كان لا بد من الطلاق، لم يكن زوجها السابق يحترمها، وكان هذا سبباً كافياً لتطلب الطلاق منه بالرغم من أن الجميع وقفوا ضد هذا الطلاق، لكنها أصرت على ذلك فتم لها ما أرادت .

تأكل الآن كل ما تصادفه في ثلاجتهم من بقايا طعام أخوتها، الذي تحتفظ به الأم عادة في الدولاب الأخير القريب من الدولاب المثلج.

كانت الماكنة عاطلة منذ الصباح، واليوم كان يسبق يوم العطلة الأسبوعية، وقد وضعت توقيعها على الورقة الحمراء الخاصة بعطلات الماكنة، وأخذت وجبة عمال صيانة المعمل خبراً بذلك، وشعرت أنها نفضت يدها من الموضوع جلست مراقبة الإنتاج على تكية الماكنة الخشبية، وأخذت تفكر بأشياء كثيرة. كانت سندس قريبة منها بالرغم من أنها أكثر فتوة إلا أن زميلتها لاحظت هزالها المتزايد يوماً بعد يوم، فتذكرت الفترة الأولى بعد طلاقها مباشرة، وكم هزلت بسبب الحزن، وكثرة التفكير، فكرت أنها تعاني الآن مثلما عانت هي قبل سنوات: لا تدري لماذا يتزوج الرجال، وهم لا يعرفون قيمة العلاقة الزوجية، فيؤذون فتاة مثل سندس، ومثلها هي قبل ذلك ؟!

سمعت سندساً تسأل:

- أنأكل غداءنا الآن ؟

فكرت مراقبة الإنتاج قليلاً قبل أن تقرر:

- لنفعل ذلك ما دمنا نملك الوقت.

أشارت سندس لزميلتهما الثالثة لإحضار الطعام، الموضوع في درج المنضدة. مسحت العاملة الثالثة التي امتلأ وجهها بنمش كثير يديها بقطعة قماش يتركنها عادة بالقرب من المنضدة، وفتحت الجرار . كانت المكائن الباقية تدور، وثمة عمال يتحدثون بالقرب من إحدى المكائن، ورافعة شوكية تزأر مزمجرة حاملة المواد الأولية المخرومة، وتلقي بها في رزم كبيرة بالقرب من الممر، ويدفعها عمال صغار السن على عربات واطئة، وهم يزمجرون بصوت عال، لثقل ما يدفعونه وليفسح لهم العمال الطريق، والعاملات الثلاث يعدن غداءهن، ويتحدثن أثناء ذلك بصوت واطىء عن المهندس الشاب الجديد، الذي كان ينظر في الايام السابقة صوب سندس كثيراً، وهي لا تعيره اهتماماً، وتساءلت مراقبة الإنتاج في نفسها: هل عرف إنها طلقت من زوجها قبل شهور قليلة فقط ؟

قالت سندس، وهي تبلع لقمتها بصعوبة:

- ما رأيكما نذهب اليوم إلى السينما ؟!

قاطعتها الأخرى ضاحكة:

- لنذهب إلى مدينة الألعاب !

نظرتا صوب مراقبة الإنتاج، التي قالت بعد فترة صمت قصيرة ببرود:

- ألا تفكران بالأهل ؟!

قالت سندس:

وفي رأسها صور تنمو لحيوانات صغيرة، ونمور محبوسة، وأقنعة مخيفة، وضعها رجال على وجوههم:

- ما رأيكما بحديقة الحيوانات ؟! إنها المكان المناسب لنا فيما اعتقد..

ضحكت مراقبة الإنتاج كأنها سمعت نكتة، وألقت ما تبقى في يدها من طعام في سلة صغيرة للنفايات بالقرب من الماكينة وقالت:

- ستتمتعان قليلاً، وعند العودة إلى البيت ستدفعان ثمن هذه السعادة المسروقة، سيصفعك أبوك وستمزق أمك طبلتي أذنيك من كثرة اللوم.. أما أنا فسأذهب بعد العمل إلى البيت مباشرة.

صمتت الفتاتان وألقت كل واحدة بقايا طعامها في السلة، وأكملت مراقبة الإنتاج:

- لدينا أشياء صغيرة في البيت نفعلها.

قالت سندس:

- آه، آجل..

وامتلأت عيون العاملات بحركات العاملين على امتداد مساحة المعمل، ودوران المكائن، وتدفق البضائع المنتجة، وحركة جامع النفايات، وهو يمر بعربته بالقرب من ماكينتهن العاطلة، مثل مهرج يجمع الهبات، وحين لمحته سندس قالت منكدة:

- ألا تقول لنا شيئا عن زوجتك الجديدة ؟!

ضحك -أبو علي- جامع النفايات في المعمل، وترك عربته بالقرب من طرف الماكينة العاطلة، وحين لمحته مراقبة الإنتاج استدقت على شفتيها ابتسامة، قال أبوعلي، وهو يخوص بعينيه، ويمسد بيديه شعر رأسه الأبيض بحركة هزلية:

- طلبت منها في أول ليلة أدخل عليها فيها أن ترقص لي !

وبدا وكأن العاملين يكرران تمثيل تمثيلية معادة عشرات المرات، قالت سندس:

- وهل رقصت لك ؟!

قالت مراقبة الإنتاج، مكملة:

- وماذا تستطيع المسكينة أن تفعل غير أن تجيب طلبه !

فقالت العاملة الثالثة وفي عينيها توسل:

أفعل أمامنا كما فعلت عروسك في تلك الليلة !

قال هامساً:

- كانت خجلة وخائفة، وقد خطبها لي أهلي من الريف.. رفضت في البداية أن ترقص، لكنني أحضرت طبلا وعصا فعرفت إنني سأضربها أن لم تفعل، فرقصت كما لو كانت نعجة مريضة توشك على الموت، ولم أر في حياتي عروساً مرتبكة وحزينة مثلها، عروس لا تجيد الرقص، ريفية جاهلة، وخائفة جدا، وقد أثارت في نفسي الشفقة عليها.

وكركر ضاحكاً، ثم أخذ يحرك جذعه هازئاً من رقص زوجته السابقة، محركاً قدميه إلى الخلف، كما يوشك على نطح أحد ما بعجيزته، ويرفع يديه ثانية في الهواء، ويفرج ما بين أصابع كفيه بحركة تشنجية مضحكة.

والفتاتان تصفقان لعامل النفايات، وهو يهز جذعه، ويمد رقبته بشكل مضحك، واكتفت مراقبة الإنتاج بالنظر إليهم بوجهها الشاحب، وهم يمرحون، وبدأ رأسها يؤلمها بسبب أرتفاع ضجيج المكائن المزمجر، و أستدقت ابتسامة

غامضة على شفتيها، وأحتبست كلمات قليلة لم تستطع التفوه بها، فبقيت محبوسة بين الشفتين، ربما كانت جملة :

- لا أبداً لن أكون تلك العروس.. التي لا تجيد الرقص ثانية أبداً...

19

شجرة الحب.....

عادا من الجمعية التعاونية بعد أن تسوقا مواد غذائية تكفي لأسبوع، والشمس تغرب والأفق يشتعل بحمرة قانية . كانت مكلفة بعمل مسائي في مقر عملها حتى الساعة السابعة مساءً قبل ذلك التبضع المتعب، كان زوجها فرحا بطبق البيض الكارتوني الذي حصلا عليه من الجمعية المخصصة، لذي الدخل المحدود بسعر مخفض، ولديهم الآن ثلاثون بيضة إلا واحدة

وتهشمت تلك الواحدة عندما دفعه المسؤول عن التوزيع في السوق، معتقداً أنه تجاوز على دور غيره في الطابور، وبالرغم مما لقياه أثناء يومهما من متاعب أثناء العمل، وبعد ذلك في التعاونية إلا أن زوجته وجدت المزاج الرائق لتضع رأسها على كتفه عند العودة، وأخذت خصلات شعرها تتطاير حول أنفه ووجهه، وقد صبغت شعر رأسها قبل فترة قصيرة بصبغة مغشوشة، مما عرض شعرها لأن يصير مثل خيوط الليف، وجعلها تبكي لمصير شعرها مدة يومين، وصدعت له رأسه عن مصير أولئك الناس الذين يغشون غيرهم، متمنية أن يحاكم من يخدع أبناء جلدته بهذا الشكل، ويعاقب بأقسى أنواع العقوبات وأولها أن يستخدم المادة المغشوشة على نفسه أمام الجمهور ليصير أضحوكة !!

لكنها نسيت كل ذلك بسرعة عندما أعطتها أحدى صديقاتها زيتاً طبيعياً مأخوذاً من شجرة أفريقية ضخمة تسمى شجرة الزان، فسرحت به شعرها فزالت خشونته، لكنه بقي يثير رائحة قوية منفرة تذكر برائحة الأغصان المقطوعة لتوها، ولأنها لا تستطيع أن تشم شيئاً لعيب ما في أنسجة أنفها منذ الولادة كما أخبرته في فترة حبهما الأولى، فبقي وحده يعاني من تلك الرائحة غير المقبولة ليلاً ونهاراً، ولم ينبهها إلى ذلك مخافة أن تغسل شعرها من ذلك الزيت المتعفن، فيعود شعر رأسها خشناً كخيوط الليف فتعاود البكاء من جديد على نعومتة

المفقودة، وتصدع له رأسه، كانت تتنهد بين لحظة، وأخرى طيلة قطعهما مسافة الطريق بالحافلة بعد ذلك، وقد كانت ممتلئة تماماً بالناس العائدين إلى بيوتهم بعد يوم عمل متعب، وأخذت تقول له هامسة: (أحببتك منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها... يا آلهي كم كنت غبية !!)

قال ضاحكا من رومانسيتها:

- (أننا متزوجان منذ أربع سنوات، ولا زلت تذكرين كل ما حدث لنا في فترة حبنا الأولى، لك ذاكرة مدهشة حقاً، وتذكرين ذلك مباشرة بعد معركة الحصول على البيض التي خضناها مع غيرنا ...)

- (لا تهمني كل هذه الصعوبات ... ما دمت ستبقى تحبني كما كنت، وإلا فأنا غبية وحمقاء لأنني أحببتك !! .)

شعر بالشفقة عليها، كونه لم يكن الشخص المناسب لها، هو يعرف ذلك، ولكن الحب أعمى مثلما يقولون، إذ بالرغم من وظيفته الصغيرة، وراتبه المحدود، وعدم كماله الدراسة الجامعية، ومواهبه المحدودة إلا أنها وافقت على الارتباط به، وهي الابنة الوحيدة لعائلة كبيرة، معروفة جدا في مدينتهم، وقد كان أبوها وكيل وزارة سابق، أما هو فقد عاش

طفولة بائسة، وقد أكملت دراستها الجامعية بتفوق، و بالرغم من معارضة عائلتها لهذا الزواج، الذي حرمها من متابعة دراستها العليا في الخارج، مثلما تؤكد و تكرر أمها لكل من يسأل عن أحوال أبنتها من المعارف وألا قرباء الشامتين بمصيبتها كما تعتقد، ألا أن الابنة أصرت على الاقتران بمن تحب، وتم لها ما أرادت واقترنت به وعاشا حياة مغمسة بالحرمان والحاجة، لكنها كانت سعيدة على كل حال، إذ كان يكفيها أن تحلم بحيازة ما ينقصها لتجده في خيالها قريباً من يدها ، وفي كل مرة تتسبب بكارثة حقيقية لزوجها بسبب حياتها السابقة في بيت معروف ووسط اجتماعي آخر، ولا يدري كيف رعته العناية الإلهية في كل مرة ليخرج من محنة ليقع فيىرخأ، ويجد منقذا جديدا مما عاشته وتعلمت عليه في طفولتها وهكذا:

ففي مرة من المرات أقامت وليمة كبيرة لصديقاتها، ومعارفها في احد الفنادق الغالية، و اضطرته تلك العزومة أن يستدين من كل الذين يعرفهم، ليسدد الفاتورة الضخمة التي أبتلى بها تلك الليلة، لقد كانت ليلة ليلاء لن ينساها طيلة حياته لما فيها من أنواع القلق والإحراج.

كان أصحابها وأقرباؤها يأكلون ويتحادثون ويضحكون، وهو وحده كان الصامت المحتسب، كأنه المأكول في تلك الوليمة لا زوج صاحبة الدعوة، وقال مع نفسه حينها صدق من قال، إن أشجع الشجعان من يرى الناس تأكل من طعامه، ولا يصيبه الشلل أو تأتيه السكتة القلبية، لأنه أستدان المال لشراء ذلك الطعام، الذي يبعثر يمينا وشمالا كأن من أشتراه لم يدفع عنه مالا، طعام بلا ثمن !! لم تكن وليمة من الولائم التي نعرفها بل كانت الخراب بعينه، وكانت رغبته عميقة بحبس هؤلاء الناس جميعاً في أقرب موقف للشرطة، متذكراً نادرة عن احد العارفين سمعها من أستاذ اللغة العربية عندما كان طالبا في الثانوية، فذلك العارف سمع يوماً رجلا يصيح في الشارع: مَنْ يُعشي الجائع ؟ فناداه وعشَاه. ولما أراد الرجل أن ينصرف قال له: هيهات أن أسمح لك بالخروج إلى الشارع هذه الليلة، فتؤذي الناس كما آذيتني، ووضع رجله في قيد حديدي وحبسه حتى الصباح .

يكاد أن يضحك كلما تذكر شيئا مما فعلته به زوجته طوال السنوات الأربع الماضية، لكنه يعترف بأنها أطيب إنسانة عرفها، أتفق معها في الكثير مما اعتقدته صحيحاً من العادات التي لم يكن يعرفها من قبل، وكانت قد تعلمتها من أفراد طبقتها والناس الذين عاشت معهم، وتعلم منها الكثير مما لم يتعلمه من أهله الفقراء، الذين كانوا يرتجفون أمام أقل الموظفين منزلة في الحكومة. فجأة رأى زوجته تنظر في ساعتها وتهب مذعورة، سألها: ماهي الحكاية ؟ قالت : كادت تقع كارثة حقيقية لحبنا . فقال متوفزاً : يا ستار ....

كان بعض الجالسين في الحافلة حولهم قد انتبهوا إلى الحوار الذي دار بينه وبين زوجته، ورآى تجمع حاجبيها بخط واحد، وهذا يحدث لها حين تنفعل بشدة، والجميع أخذوا يتلفتون حولهم معتقدين أن حادثاً مرورياً سيقع للحافلة التي يستقلونها، وسألته كأنما تسال تلميذاً في الثانوية، هل حضر واجبه البيتي :

- إلا يذكرك اليوم الثاني من آذار بشي ء ؟؟؟

وسمع في صوتها بحة غريبة كأنما توشك على البكاء، وحاول أن يتذكر، ولكن ماذا يتذكر، وهما يعيشان في دوامة حياة صعبة كثيرة الإحداث، سريعة التقلبات لا تمهل أحدا هنيهة ليتأمل حياته، وما آلت إليه أحلام طفولته وشبابه، ماذا يتذكر الإنسان وهو يركض صباحاً ومساء ليوفر القليل الذي يكفي للعيش المستور ؟ وحاول أن يتذكر، لقد بدا له وجه زوجته وهي تنتظر إجابته كالحا،

وكأنها لن تنتظر طويلا لتلقي عليه بحكمها القاسي الأبدي، أنه بلا عواطف، وأنه توقف عن حبها، ولا يعبأ بها، ولا يتذكر تضحيتها بأهلها من اجله، من أجل حياتها معه، التي صارت بلا طعم ولا معنى، وحاول أن يشحذ ذاكرته متوسلا بالله تعالى أن يمسح الشاشة التي اصطبغت بالبياض في رأسه بكلمات يستطيع قراءتها، لفك هذا اللغز المبهم الذي تطرحه عليه زوجته الحبيبة، وتلفت مستنجداً بوجوه، الذين حوله من ركاب الحافلة وعندما شعر الركاب أنهم إزاء مسائل عائلية بين رجل وزوجته، أداروا وجوههم باتجاه زجاج النوافذ أو إلى صحفهم المفرودة بين أيديهم، تاركينه في محنته الخاصة أمام ملامح صلبة لزوجته، التي تنتظر الإجابة على مضض، وكأنها اتخذت قرار الإدانة ضده، حتى قبل أن أن تلقي السؤال عليه، وتساءل مع نفسه: يا ربي هل هو يوم زواجنا ؟ أو خطوبتنا ؟ هل هو يوم وفاة أبيها ؟ أو موعد دفع الإيجار لصاحبة البيت الذي نسكنه ؟ أو موعد حلول دفع قسط أثاث عش الزوجية الفاخر ؟ أم هو موعد حلول احد الوعود الذي قطعته على نفسي في لحظة حب لها لم احتسب فيه، ولم أتروَ وعلي ألان أن أدفع الثمن؛ تنفيذ الوعد ومواجهة غضبها لأني نسيت تاريخ الوعد. وأخذ يضرب أخماساً بأسداس، وانطبعت على وجهها قسمات الأستاذ عندما يحاول تقريب الإجابة الصحيحة لطالبه الغبي، وهو يراه يحير أمام سؤال بسيط، لكنه يحتمل إجابات كثيرة، فقالت بصوت فيه الرحمة ومشاركة المحتار :

- الرابع من آذار، الساعة التاسعة مساء ؟

أراد أن يعرف ما جرى في التاسعة مساء من ذلك اليوم (الزفت)، لكنه لم يتذكر برغم محاولاته العديدة، وكان كلما حاول التركيز على يوم من أيام شهر ماض تناثرت في رأسه صور حياته، مثل أوراق الأشجار وقت الخريف . يا الله كم من الذكريات في هذا الرأس، وكم من الصور المرتبكة التي تختلط ببعضها، وتتناسل كأنما دخل إلى صالات سينمائية عديدة ليشاهد في وقت واحد عدداً لا يحصى من الحوادث والمصائر، سبحان الله بالرغم من ذاكرتنا المدهشة، لكننا لا نستطيع أن نجد ما نبحث عنه إلا حين نضع العنوان الواضح لما نبحث عنه، وسألها متردداً مثل جاسوس يستنطق الناس ليصل إلى معلومة يريد أن يعرفها:

- هل الأمر يخصك أم يخصني أو له علاقة بعائلتينا ؟

حدجته بالنظرة ذاتها التي سحرته عندما التقاها أول مرة :

- أمر مهم لي ولك ....

ولم تضف عبارة جديدة، وفجأة أشرقت شجرة يوكالبتوس ضخمة في خياله، وصاح كطالب وجد الإجابة الصحيحة في اللحظة الأخيرة من الامتحان :

- شجرة الحب . شجرة حبنا الأولى أنسيت ؟ !!...

ورأى ابتسامتها تتسع لتصير ضحكة، ونظرت إلى ساعتها، وقالت باستعجال : سنوصل البيض إلى شقتنا ونغير ملابسنا لنخرج من جديد لنحتفل بذكرى أول لقاء لنا عند شجرة الحب .

في هذا الوقت المتأخر يا عزيزتي؟ ونحن بهذا الإرهاق والجوع الخرافي ؟

قالت برومانسيتها وخفة روحها :

- سنأخذ سندويجتين من الطريق، لنلحق نصل بالوقت المحدد، سنكون في التاسعة عند شجرة الحب، ونشعل عندها شموع سنوات حبنا الماضية ....

ردد مع نفسه، وهو يشعر بإرهاق لا مثيل له : هذا جنون مطلق ...

فسألته صارخة، والركاب القريبون منهما يحاولون التنصت على ما يقولان من دون إثارة الانتباه لهم خصوصاً بعدما أنارت وجه زوجته أضواء ذكرياتهما الأولى وحبهما العاصف السابق:

- ماذا قلت ؟

- لا شيء . تساءلت فقط، هل نجد الوقت اللازم لنصل تلك الشجرة ؟ (أراد أن يقول تلك الشجرة القبيحة، لكنه حبس الكلمة لئلا تغضب زوجته لأنه وجه إهانة إلى ذكرى عزيزة من ذكريات حبهما الخالد...)

****

في التاسعة مساء بالضبط كانا قريبين من تلك الشجرة الضخمة، التي لفها الظلام من كل جهة، ولم تكن المنطقة مثلما كانت قبل أربعة أعوام عامرة بالأضواء، والباعة الجوالين والناس الفرحين، كما أن المكان لم يعد نظيفا كما كان من قبل، فقد انتشرت الأزبال هنا وهناك، وأوى إلى حفرة قريبة من الشجرة كلب شرس، أخذ ينبح حالما شعر بوجودهما قريباً من الوجار الذي صنعه قريبا من جذع الشجرة، وقد كانت امرأته تخاف أشد الخوف من الكلاب، لكنها لم تفصح عن خوفها من الكلب لئلا يجد زوجها مبرراً للانسحاب من هذا المكان العزيز على قلبها. الحديقة الصغيرة التي كانت حول الشجرة قد تحولت

بفعل القصف المدفعي أثناء الحرب السابقة، والزمن، وعدم الاهتمام إلى خراب موحش، وحتى الأشجار الصغيرة التي كانت تعد بالزهور والأثمار تيبست لأنها لم تسقَ بانتظام، ولم يهتم احد بها منذ فترة طويلة، فيبست وماتت، وبدت من بعيد في الظلام مثل هياكل عظمية مخيفة تقف بالمرصاد للقادمين، معلقة في الهواء بخيوط غير مرئية يحركها الهواء كلما هب بين الحين والآخر، فتصدر نشيجاً حزيناً، كأنه بكاء على من قتلوا من العاشقين الصغار في هذا البستان أثناء القصف العشوائي للمدينة أثناء الحرب، لقد مضت الأيام السعيدة التي كانت مليئة بالوعود الكاذبة إلى الأبد... قالت زوجته برومانسيتها التي اعتادها، و التي لا تريد أن تتخلى عنها، مهما تغيرت الدنيا والظروف، والأحوال، ومضى الزمان السعيد ومجيء زمن أصعب وأقسى :

- سنوقد شموع حبنا هنا .....

وتعالى نباح الكلب، كأنما ينذرهما من عواقب الاقتراب من مأواه، لكن ذلك النباح المبحوح المخيف لم يثن الزوجة عن إخراج أربع شموع، وأعطت زوجها علبة الكبريت ليشعل لها عود ثقاب، وما أن فعل ذلك حتى سمعا صوت صفارة يعلو، وسمعا بعد ذلك صوتا أجشاً يأمرهما أن يقفا مكانيهما وأن لا يتحركا، فوقفا مدهوشين، ومن بين صف الأشجار الواطئة برز لهما رجل وبيده كشاف كهربائي، وسرعان ما استطاعا أن يميزا هيأة رجل حرس محلي من أولئك الذين يصطادون الخارجين على قانون الأخلاق العامة، وسألهما بصوته الأجش : - ماذا تفعلان في هذا المكان وفي هذا الوقت المتأخر ؟

وحاول أن ينظر في ساعته، وهو يقرب نور الكشاف من معصم يده . قال له الزوج محاولا تصنع المرح، وقد فكر بسرعة أنه إذا أخبره بالحقيقة، فانه سيعتقد انهما يخدعانه، وسيضطرهما للذهاب معه إلى مركز الشرطة، كمشبوهين، كي يثبتا انهما متزوجان، ولن يطلق سراحهما إلا في صباح اليوم التالي، كما اعتادت الشرطة أن تفعل ذلك مع غيرهما في أحداث مشابهة :

- أنا وزوجتي جئنا لنوفي نذراً بإيقاد الشموع هنا !!.

نظر الحارس المحلي بوجهيهما مشككاً ثم نظر بوجه الزوج، وشعرا أنه سيطلب منهما أوراقاً ثبوتية تثبت أن المرأة هي زوجته... وسأله الزوج بجرأة، أن كانت المنطقة ممنوعة على السابلة ؟ فأجاب (بلا) طويلة تعني نعم في عرف الحرس المحلي !! لكنه أضاف أن الوقت متأخر، وعليهما أن يغادرا هذا المكان، وإلا أضطر إلى أصطحابهما إلى مركز الشرطة لأن الأوامر التي

لديه واضحة، ولا تسمح لهما بالالتقاء في هذا المكان ليلاً، وإذا كان لديهما نذر ما، فعليهما أن يذهبا إلى مكان آخر غير منطقته المسؤول عنها لقضائه هناك، شكره الزوج، وأمسك بيد زوجته، ليستعجلها على مغادرة المكان المرعب، ونسيان شجرة حبهما الأولى إلى نهاية العمر !!

وفي الطريق كانت زوجته تبكي صامتة أول الأمر لكنها حالما أبتعدا عن البستان والحارس أخذت تؤنبه لأنه لم يكن حازماً مع ذلك الحارس البلدي المتخلف الذي لا يفهم المعاني السامية في الحب، وقد أد فرحتهما بالذكرى الرابعة لميلاد حبهما الخالد بكل قسوة، وبحث الزوج عما تبقى في جيبه من الراتب الشهري، وقال لها بكرم حاتمي :

- لا عليك يا حبيبتي، سأدعوك ألان إلى عشاء في المطعم الذي تختارين، لنحتفل معا بهذه المناسبة السعيدة ....

فرحت زوجته جداً، مسحت دموعها، وتمخطت بورق كلينكس كان تمسح دموعها به، وأرادت أن تقبله في الطريق، لكنه أشاح بوجهه عنها هامسا: " الناس يا حلوة " وأكمل كلامه بكلمات حازمة : - لكن بعد هذه الدعوة الكريمة، أرجو أن نجد من يسلفنا مالاً لنعيش به حتى نهاية الشهر !!

20
كان ذلك الرجل أبي...

لم يظهر الخط الفاصل بين الماء والسماء واضحا، ولكن همهمة الماء المترجرجة بين الصخور المطحلبة، كانت تفصل بين الصمت المطبق، وحكايات البحار التي تلوب في ذاكرة أبنته، كان أبوها يحب البحر، وهي تحب أباها كثيرا وتعجب به، وتعتقد أنه اكبر من البحر الذي يحبه كثيرا، كانت لا تمكث في أحضانه طويلا، كما باقي الصغيرات في سنها بل تنتزعها أمها منه أنتزاعا، ليأخذ حاجاته الضرورية في سفرة جديدة، ولأنها فتاة صغيرة عاقلة، ومؤدبة كما يقولون عنها، فأنها لا تلح عليه بالبقاء كثيرا، ولا تطلب منه أن يصطحبها معه على ظهر الموج، كما يفعل الأبناء المدللون، وهي تعرف أن أباها يعمل في سفينة صيد كبيرة تجوب المحيطات، باحثة عن أسراب الأسماك، وأنواع الحيوات الأخرى الصالحة لأطعام الناس

.. تتذكر كيف كان يبتسم حين تنظر في عينيه، وتراه يطرق أو يغير موضوع الحديث عن البحر ويقص عليها أخبار رحلته السابقة، ليحدثها عن قصة مشوقة جديدة حدثت له في رحلته الأخيرة، كما كان يفعل السندباد البحري في قصص الف ليلة وليلة، التي كانت تقرأها عن البحار، والسفن الغارقة، وعن القراصنة والبلدان العجيبة، والمخلوقات الخرافية، و يشعر الأب بعينيها تلتهمانه، وبرغبتها العارمة، التي تفصح عنها نظراتها المتوسلة به، أن يزيدها من حكاياته التي لا تنتهي.. وبعد كل رحلة كان يجلب لها هدية ..

تتذكر انها كانت تملك دولابا مملوءا بالهدايا من كل بلدان العالم تقريبا .. قبل أن يعمل في سفينة صيد الأسماك المشؤومة الأخيرة كان قد عمل لسنوات كثيرة في سفينة تنقل البضائع بين موانىء العالم، وأهداها قططا ميكانيكية واجهزة كهربائية مسلية، ودمى كثيرة .. لكنها لم تكن تريد أمتلاك كل هذه الدمى، أنها فقط كانت تريد منه أن يبقيها في حضنه الى الأبد، كالأباء الآخرين لصديقاتها، ويمسد لها شعرها بأصابعه الرقيقة، ويروي لها حكايات لا تنتهي عن البحار، وملكات البحار، اللاتي يعشن في الأعماق، وعيونهن من الزمرد والياقوت، وشعورهن الناعمة، مثل سبائك الذهب والفضة، ويقضين اوقاتهن في السباحة حول سفن الصيد، بأنتظار أن يهبط اليهن أمير من امراء الأرض، وعندها يقمن الأفراح، ويرقصن وسط المحيط فرحا، وسعادة بعقد قرانه على واحدة منهن، وعندها فقط ترشدعروس البحر إلى عريسها الأمير الأرضي، الى كنز الكنوز في قاع المحيط، وتساعده لأخذ ما شاء من ذلك الكنز المبهر للنظر والذي ليس له مثيل في كل العالم ...

عند بزوغ الفجر، وبعد ليلة ساهرة قضوها معا، هم الثلاثة أمها وأبوها وهي، تتسمع وقع أقدامه الحذرة فوق أرض الدار، وهمسه الخافت لأمها ، ترفع عن جسدها الغطاء الثقيل وتركض صارخة:

- بابا ... بابا ...

يفتح ذراعيه ليتلقفها ويرفعها الى صدره، ويدفن أنفه بين خصلاتها، ويحملها حتى تغفو من جديد على كتفه، تتذكر انها كانت تحلم أحلاما رائعة، ترى في حلمها أسماكا ملونة تطير في السماء، وتمتطي صحبة أبيها دلافين البحر، ويذهبان بعيدا الى عرض المحيط .. تفتح عينيها ببطء بعد ذلك،

فتسمع تغريد البلابل في حديقة الدار، وترى أشعة الشمس الدافئة تنفذ من النافذة، لتغزو سريرها، وتعرف من الصمت المطبق في البيت أن أباها سافر، وأن أمها في المطبخ حزينة تعد فطور الصباح وتبكي بصمت .

وعادت الطيورالرمادية تحلق بموازاة الساحل، وتبتعد بأتجاه البحر، بينما كانت الفتاة تتابع الطيور – بعينين ساهمتين – عندما يحل الشتاء، تحس الفتاة بوحدة رهيبة، ووجه ابيها يطل عليها من بين ألسنة لهيب الموقد متوردا، واثقا من نفسه مرددا جملا سمعتها من بحار في فيلم سينمائي، وحفظتها عن ظهر قلب، وكأن أباها هو الذي قالها....

– البحار لا يخسر شيئا، لكنه يربح كل شيء، لا يبقى منه سوى ذكريات يتيمة في كل مرفأ، وفي قلوب أبنائه أيضا – طفرت فوق شفتيها كلمة قالتها بأصرار - لا أبدا يا أبي لن أنساك ما دمت حية، كيف أنساك وأنت الصديق الوحيد الذي لم أعرف غيره ؟ ....

كانت الأسماك الصغيرة تحاول الامساك بفتات الخبز الذي تنثره الفتاة، وفي الماء الصافي، كانت ترى وجه أبيها مليئا بالحيوية يرقص لها ولأمها رقصة غريبة تعلمها في احدى رحلاته البعيدة، كان ينحني ويهز جذعه حتى يبدأ باللهاث، ويقطع لهاثه ليزمجر قائلا ...

- أن هذا المقطع من الرقصة يمثل صراع الا نسان من اجل أن يعيش، ويسيح العرق الغزير فوق وجهه، وعلى صدره العاري، وتصرخ أمي به ضاحكة، قائلة ...

- كفى يا جميل .. كفى .. أنك تخيف الطفلة ...

لكنه لا يتوقف أبدا، تلتمع عيناه بألق غريب، ويقفز على قدم واحدة ويصرخ ...

- أنتبها ... ان هذه الرقصة تمثل كهولة الانسان، والصراع غير المتكافىء بينه وبين المرض المؤدي الى الموت ... أنها رقصة أخرى معبرة ... كما تشاهدان الآن ...

وكنت مع أمي أضحك بسذاجة وحميمية، ويحمل الهواء أصوات سعادتنا القصيرة الى الجيران، ونتخيل أبتساماتهم المتعاطفة مع أفراحنا الخجولة، التي تستمر ليلة أو ليلتين ثم يحل الوجوم، والصمت لشهور طويلة قاسية .

نظرت صوب الساحل الطويل الممتد وهمست – يا للروعة .....

كانت الغيوم كنديف الثلج تعوم في زرقة آخاذة، وفوق الأرض المزروعة بالشجيرات الواطئة التي امتلأت أغصانها بالورود الندية، كان زملاؤها في الكلية يفترشون الأرض، ويتناولون الشاي، ويضحكون .. قالت في نفسها جازمة ... انها أحسن رحلة طلابية أشتركت فيها هذه السنة، ويبدو أن الجميع مثلي يستمتعون بوقتهم أيضا، لكنها بعد لحظات شحبت، وأحست بوخزة في قلبها حين سمعت صوت باخرة قادمة من بعيد .....

أحست أنها لاتستطيع أن تسيطر على قدميها، وقلبها يفر من مكانه، وتجدد صوت صفير الباخرة.. –بم .. بم....بم ..مممم –

ركضت بموازة الساحل، ولم تهتم با لوحل الذي لطخ سروالها الرصاصي، وأخذت ترفع يدها محيية الرجال القادمين، والذين يبدون من مكانها البعيد مثل دمى صغيرة بيضاء ... ورأته .. أجل رأت هذه المرة أباها ... وأخذت تركض .. كان يلوح لها بيديه، وشعرت بأنفاسها تتقطع، وكانت الباخرة الكبيرة تتجاوزها باستمرار .. فتوقفت الفتاة، وهي تلهث من التعب، وشعور عمبق بالمرارة ينتابها، وهي تشعر بعقم تخيلاتها .. ورددت من بين لهاثها ..

- ليس هو.. أنني أعرفه جيدا ... أنهم متشابهون في ملابس البحارة، وعن هذا البعد الكبير ....

جلست فوق الجرف الصخري، وشعرت بالدموع تسيح على خديها، والمرارة تغزو فمها ...

قال لها في يوم ما :

- سأصبح بحارا شيخا، واترك البحر الى الأبد لأبقى قريبا منك ...

قالت بلهفة :

- متى يا أبي ؟ متى ؟ ...

- عندما أصبح شيخا .. سأحصل على راتب تقاعدي، لكن هذا الأمر بالطبع يستغرق وقتا طويلا .. هل ترغبين برؤيتي شيخا كثير السعال، وأتكىء عل عكاز قصير، فأميل الى اليسار أو اليمين حسب الجهة، التي تحمل العصا ثقلي ؟!!..

- لن تصبح شيخا أبدا ...

- لمه ؟ أني مثل الآخرين، ولست جنيا ...

ـ لأنك أبي، وأنا لا أرغب برؤيتك تتكىء على عكاز قصير، فيميل جسدك القوي للسقوط الى الأرض أبدا....

كانت الصغيرة تؤمن ايمانا مطلقا بأن أباها لا يشبه الآخرين، أنه يختلف عنهم، ليس فوق هذه الأرض من يماثله، كانت تراه في أحلام يقظتها يصارع حيوانات ويصرعها، تراه يعوم مثل فرس النهر الذي رأته في السينما، وسط جبال الأمواج، ويصارع أرواحا شريرة وساحرات شريرات، وفرسانا بأسلحة مخيفة، لكنه في كل مرة يعرف كيف ينجو ليعود الى أبنته الصغيرة، التي تركها عند المرفأ القديم تنتظر عودته مع أمها، محملا كعادته بالهدايا فتمحوأبتسامته كل أحزان الشتاء الممضة، وتنفتح في صدرها الصغير النابض ألاف الآمال الصغيرة عن الانسان، وعن الأشياء، التي يجب أن ينجزها قبل أن يغلب الى الأبد ...

كانت في كل مرة تتعلم أشياء جديدة، رائعة،وهو يحدثها قائلا ..

ـ عندما يغزو الضباب كل شيء .. أحس بسعادة عارمة .. أراك تنتقلين فوق الضباب مثل راقصة باليه رقيقة ... أجلس فوق سطحة السفينة، وافكر بك بعمق الى درجة أشعر أنك تصيرين قريبة جدا مني... وأكاد أستطيع لمسك لو أردت، لكنني كنت أخاف أن مددت يدي تتبخرين فجأة، ولا يبقى من جمال البحر شيئا ... أحس بروحك تلوب قرب مؤخرة سفينتنا راكبة كل موجة تتحرك مدفوعة، الى الامام بالرياح الشمالية، وأحس بصدري العاري يختلج بالحرمان منك، وكلما تطلعت بأتجاه البحر أشعر بعينيك تراقبانني من خلاله، وأنا مع رفاقي، أتحدى الخصم الكبير .. البحر ... أنه خصم مخيف يا حبيبتي لكنه وديع في لحظات صفائه، وصديق ممراح، لكنه حين يغضب، وتجأر السماء بالبرق، والرعد والمطر، ويغيب كل شيء سوى أمواج بحجم الجبال تلصف فوق نهاياتها أضواء باخرتنا العائمة، التي تبدو مثل علبة كبريت في سائل صخاب أحس انني أود لو أغني، أو أبكي بصوت مرتفع ... لست جبانا ياأبنتي، لكنها رغبة عارمة في صدري، تجتاحني، وتشمل كل خلية من خلاياي .. هل ما تذكرته الفتاة من نسج خيالها أم من ذكرياتها الحقيقة عما قاله لها أبوها في يوم من الأيام ؟ لا تستطيع أن تتأكد من كل هذه الوقائع بعد هذا الزمن الطويل على فقدان أبيها في المحيط

أخذت تنظر بأتجاه زملائها في الرحلة المدرسية باحثة عمن يشبه أباها .. ربما وجدته في هذا الزميل، أو ذاك، أنها تفكر، وتقارن بين من تراه،

وصديقها العزيز الغائب .. كانت لحظتها تسترجع مراسم التشييع الرمزي الذي أقامته نقابة الصيادين لأبيها .....

تتذكر بحسرة ان فرقة شعبية للموسيقى عزفت في ذلك الحفل الذي لم تصمد فيه أمها طويلا، وفقدت وعيها مرتين أمام عينيها، وكما عرفت بعد ذلك عن ا للحن الموسيقي كان باسم - كان ذلك الرجل الجذاب صديقي – تتذكر الآن بشكل أكيد أنها كانت ترى أباها مع حركة الآلات الموسيقية، وسط الحشد الكبير من المشيعين من اصدقائه، البحارة والصيادين الذين عمل معهم في فترات مختلفة من حياته ... نعم كانت تراه فوق ظهر باخرة عظيمة تمخر عباب المحيط مسافرا الى مرافىء عديدة بعيدة جدا.. رأته يلوح لها بيده أيضا، وفوق شفتيه المتوترتين رأت تصميما على العودة من جديد الى أبنته الرائعة التي تنتظر عودته عند المرفأ القديم، محملا بالهدايا كعادته في كل مرة يسافر فيها وتطول فيها فترة غيابه عنها كثيرا ... لقد كان ذلك الرجل أبي !!

21
" بستان العاشقين..."

جلست المرأة الشابة على المقعد الخالي إلى اليسار من بوابة المقهى، حابسة دموعها بصعوبة، ناظرة بعينيها الحزينتين عبر النافذة الزجاجية المطلة على الحديقة الكبيرة، التي يضمها الفناء الواسع المحيط بالمبنى الشتوي للمقهى، وقد بدا الضباب كثيفا عند أعلى الزجاج، الذي تقوس من الأعلى مع جدار النافذة. كانت في الخامسة والعشرين، رشيقة القد، ويعلو وجهها الأبيض الممتلئ بنمش خفيف كآبة عميقة، وقد وضعت على قمة شعرها الأسود المنسدل على كتفيها، قبعة صوف حمراء بكركوشة تميل إلى الجانب الأيسر من وجهها المدور. كان المقهى فارغا تقريبا إلا من بضعة طالبات من الجامعة القريبة يعدن استنساخ محاضرات فائتة على الجهاز القديم في يمين المقهى بمساعدة مستخدم المقهى، وكانت ضحكاتهن تعلو بين الفترة والأخرى.

كانت المرأة، الهاربة فيما يبدو من وظيفتها أو من بيتها، أو ربما من بيت أهلها تشعر بالحرج من جلوسها في هذا المقهى، الذي سمعت عنه القصص،

والروايات وكلها تحكي عن سمعته السيئة، ويسميه الناس" بستان العاشقين "وقد أقسمت لها صديقتها هدى بأغلظ الإيمان، محاولة التقليل من أذى شعورها بالغيرة، وحبها المجنون لزوجها لأنه يؤم هذه المقهى المشبوهة بعد الغذاء كل يوم، إنها مجرد إشاعات، ولا أساس لها من الصحة، وأن المقهى كغيرها من المقاهي التي يؤمها الرجال، والنساء على حد السواء، وما يحدث فيها هو ما يحدث عادة في كل مقاهي المدينة: لقاءات بين الجنسين وأحاديث متشعبة وضحكات ومشروبات باردة، وساخنة وآيس كريم مثلج، وكاكاو بالحليب الساخن، وحلويات وتدخين سجائر ونرجيلة، ومواعيد للقاءات جديدة، لمزيد من الأحاديث والتعارف والضحك، ولا شيء غير ذلك في تلك الأمكنة العامة المعروفة من المدينة، لكنها لم تصدق ذلك، وتساءلت أذن لماذا سموها " بستان العاشقين" ؟ وأرادت أن تثبت هواجسها بنفسها، وفكرت أنها عندما تجد الدليل على خيانته لها، عليها أن تفعل ما يؤذيه طوال حياته، فلقد آذاها كثيرا، ولم يعد باستطاعتها تحمل المزيد من الأذى، ومن جديد مسحت نظراتها القلقة نافورة الحديقة، وشجيراتها الباسقات، وقد امتلأ الجو بعطر أخاذ منبعث من شجيرات الورد، والفل والياسمين، والنرجس التي يعتني بها نادل المقهى شخصيا لغرامه بالزهور والرياحين.

راقب النادل حركات المرأة من بعيد، والتي بدت له متوترة، وانعكست ورود فانيلتها الصوفية البيضاء على زجاج النوافذ ، واسترسل شعرها فوق المنضدة التي التصقت عند قمة الزجاج، وكعادته مع الزبائن الجدد اقترب منها، فسمعها تقول له بصوت فيه بحة خفيفة : "شاي من فضلك ! "

مسح المنضدة بقطعة قماش مبللة، وقبل أن يغادرمنضدتها لتلبية طلبها سألته :

- " ألا يجيء محمود إلى هنا بين فترة وأخرى ؟ "

نطقت الاسم، وحركت كفها بعشوائية، وكأن الجميع يعرفون زوجها محمود. فكر النادل المسن لحظات. كان قد غادره الشباب منذ فترة طويلة، واصطبغ شعر رأسه بالبياض، وبدا للمرأة الشابة ضئيلا ووجهه مصفرا إلى درجة المرض، لكن ثمة بريقا محببا في عينيه، كلما حدق في وجه امرأة. أشارت له بيدها موضحة :

- "إنه طويل ، وشعره أصفر كالتبن... "

ومضت في رأس النادل صورة زوجها، ومعه شابة جميلة يصطحبها إلى مائدة منعزلة كل يوم، ويغادران بعد الغداء بساعة إلى مكان آخر، وهما على هذه الحال منذ سنة تقريبا، أكملت المرأة متلعثمة: " إنه زوجي... "
تمتم النادل بدبلوماسية محاولا التغلب على مشاعر توتر بدأت تسيطر عليه :
- "أهـــلا وسهلا بك..."
قالت وهي تشعر بالإحراج: - "جئت أبحث عنه لطارئ، ولم أجده في مكتب عمله القريب من مقهاكم، أخبرني زملاؤه أنه يأتي إلى هنا وقت الغداء... "
ابتسمت المرأة محاولة التغلب على شعورها بالحرج، قال النادل وهو في العادة لا يتدخل فيما لا يعنيه : "محمود... إنه يجيء بين الحين، والآخر إلى مقهانا ".
سألت المرأة بمكر محاولة الإيقاع به : " لم يأت لوحده آخر مرة ؟ "
فكر النادل لحظة وأجاب بحصافة : "أجل، جاء مع زميل له إذا لم تخن الذاكرة " دخلت فتاة شابة المقهى، وكانت قد بالغت بوضع أصباغ المكياج على وجهها، رأتها المرأة فازداد أوار الحريق في صدرها، مسح النادل منضدة المرأة من دون أن يلتفت إلى الوراء ليرى شكل الوافدة الجديدة، وعندما أكمل ذلك، همس " سأجلب لك الشاي... ".
قالت المرأة الشابة: " أجل سأشرب الشاي ذلك ما أفعله أثناء الانتظار " وعلى زجاج الواجهة الداخلية للمقهى نبضت الحياة بالمرئيات، فتمايلت أغصان الشجيرات، وتساقط الندى، وحرك تيار الهواء جريدة مفروشة فوق إحدى المناضد وتشظى ماء النافورة المتدفق، وطار عصفور مذعور، وبدت الحشائش أكثر خضرة في ضوء الشمس، قالت المرأة في نفسها: " سيجيء لينظر بنفسه نهاية كل شيء.. " أخرجت من محفظتها الجلدية قنينة دواء، مملوءة بحبات حمر وضعتها على المنضدة، وبقيت تنتظر مجيء النادل بالشاي، ويدها الممسكة بقنينة الدواء ترتجف... رددت مع نفسها بصوت مسموع : "لقد عشت بما فيه الكفاية، ولن أستطيع تحمل نظرات الشامتين عندما يتركني... " وضغطت بأسنانها على شفتها السفلى حتى شعرت بالألم...
جاء النادل حاملا طلبها، وضع الصينية أمامها، لم تكن قسماته تعبر عن شيء محدد، لكن المرأة كانت تراقب حركاته وتقلصات عضلات وجهه، وفكرت أنها ربما تستطيع إيقاعه بالكلام، فسألته فجأة :

- "أهي جميلة جدا ؟! "

رفع نظره إلى وجهها والتقت عيناه بعينيها، ولم يحر جوابا كررت بصوت راجف : "إنها جميلة جدا، وإلا لما أهملني كل هذه الشهور من أجلها... "

تمتم النادل : "لا أعرف ماذا تقصدين ؟ "

مسحت أنفها المحمر من جديد بالمنديل الورقي، الذي تمسكه بأصابع مرتجفة :

- " المشكلة إني أحبه ولا أستطيع أن أتخيل امرأة أخرى تأخذه مني... "

تمسك النادل بتصنعه الجهل، وعدم معرفة الموضوع الذي تتحدث عنه الزبونة، وحل الصمت بينهما لحظات، ولمح النادل قنينة الدواء على المنضدة، سألها بصوت خال من التأثر: "أأنت مريضة ؟" ، قالت كأنما تطرد شرا : "زكام فقط". قال النادل متشككا : "لا أعتقد أن هذا الدواء الخطير من أجل الزكام وحده" ابتسمت المرأة بتوتر : "لقد حزرت، أنه ليس من أجل الزكام " مد النادل كفه إلى قنينة الدواء، وأخذ ينظر إلى المكتوب على زجاجها ثم انفجر غاضبا، وتمتم بصوت مسموع، والتمعت في عينيه نظرة غامضة مشحونة بقلق قديم : "إنه الدواء ذاته الذي دمر حياتي! " كانت الفتاة ترشف من قدح الشاي، وفي عينيها نظرة مستفهمة، قلب النادل القنينة من جديد وأخذ يقرأ ماركتها، وهز رأسه إيجابا وهمس :

- "نعم.. نعم.. إنه ذات الدواء، الذي ابتلعت منه كمية كبيرة بعد أن فشلت في امتحان البكالوريا للمرة الثالثة، وقررت أن أضع حدا لحياتي... "

قالت متسائلة : "يبدو أنه لم يقتلك.."

تنهد النادل، ونظر بعينين حزينتين إلى المرأة الشابة :

- لو مت في ذلك الوقت لكان ذلك أفضل لي مائة مرة !!.. لقد مزقت هذه الحبوب معدتي، وبقيت تحت رحمة الأطباء، ومشارطهم وخيوطهم يعيدون رتق معدتي في كل مرة أسقط، وأنا بين الموت والحياة وفي النتيجة النهائية توصلوا إلى منعي عن الأكل طيلة حياتي الباقية.. أتصدقين يا سيدتي إني منذ سنوات مراهقتي أعيش على خمسة ألتار من الحليب يوميا !!"

تساءلت المرأة خائفة : "تعيش على الحليب وحده ؟ !!"

- "أجل ، ولا أستطيع أن أغير حتى ماركة الحليب الذي أشربه، إنه من النوع الخالي من الدسم تماما.. وإن أكلت شيئا فسأعاني آلاما مبرحة،

ولا أعتقد أن بشرا عانى مثلها مثلي أبدا، والمشكلة أن جميع الأدوية التي تؤخذ عن طريق الفم ممنوعة علي.. ولا أتعافى من آلامي إلا بعد شهور طويلة مملوءة بالعذابات المتواصلة ".

ارتجفت كف المرأة، وهمست وكأنها تحولت فجأة إلى امرأة أخرى أكثر اتزانا وعقلا: "من المؤلم أن أسمع هذا، تصنع بنفسك كل هذا من أجل لا شيء ؟! "

هز النادل رأسه إيجابا، مبديا ندمه على ما مضى، ولكن البريق في عينيه لم يكف عن التألق لحظة... أخذت الفتاة قنينة الدواء في كفها، وأخذت تقلبها بحذر أمام عينيها، وراقب الرجل المسن ارتجاف أصابعها، وسألها بصوت خفيض :

- " أتطلبين شيئا آخر يا سيدتي ؟ "

همست : "أرجوك إذا جاء محمود لا تخبره أنني جئت إلى هنا وسألت عنه.. " رأته يحمل الصينية، ومعها آلامه ويجرجر خطواته العليلة بين المناضد بعيدا عنها. بقيت لفترة قصيرة بعد ذلك تتأمل الحديقة والنافورة، وحركة الضوء، والظل وبدا عليها أنها تحزم أمرها، أفرغت قنينة الدواء في مكب النفايات القريب، ورمت القنينة الفارغة أيضا، ودفعت حسابها، وخرجت من المقهى. كان النادل المسن مشغولا بتلبية طلبات زبائن جدد، وهو يشعر بجوع خرافي، فهو في العادة يتناول فطوره قبل الظهر بساعة، وبعد أن اطمأن إلى خروج المرأة الشابة المجنونة بحب زوجها من المقهى، صرخ بصبي المقهى وطلب منه أن يجلب له فطوره اليومي : "نفر كباب .. كالعادة ككل يوم !!" وأطلب منه أن يزيد في كمية البصل، والطرشي والزيتون !!

فهرس القصص

1- طعام الأُسود...
2- ردني إلى بلادي..
3- بستان الذكريات
4- قص الشريط
5- وجه ميت بعينين مبصرتين..
6- ما يحدث بعد الموت..

7- زهورغالية الثمن.
8- امنيات لم تتحقق..
9- لغة العيون الخائنة..
10- بلكلا ةمعقو....
11- المخطوفة ...
12-خيل الحكومة
13-حكاية عبد القادر...
14-زوج الأستاذة
15-امرأة لم تخلق للحزن
16- بتول تحكي قصتها
17-وحمدت الله لأني فقير
18-عروس لا تجيد الرقص
19- شجرة الحب
20-كان ذلك الرجل أبي
21-بستان العاشقين

فيصل عبد الحسن

كاتب عراقي مقيم بالمغرب منذ عام 1995 ..

- له المجموعات القصصية المطبوعة :

العروس –قصص- بغداد 1986،

ربيع كاذب –قصص- بغداد 1987 ،

جنود ــ قصص ــ بغداد 1988

أعمامي اللصوص –قصص - القاهرة 2002

بستان العاشقين ـ قصص ــ طبعة أولى ـ بغداد 2016

وللكاتب تسع روايات منشورة :

الليل والنهار بغداد1985

أقصى الجنوب..... بغداد 1989

عراقيون أجناب ..... الدار البيضاء 1999

تحيا الحياة ..... لندن 2014

سنوات كازابلانكا..... لندن 2015

أوكسجين للموتى..... بغداد 2016

الرحلة العجائبية .... بغداد ـ دمشق 2021

وله روايتان قصيرتان :

(سنام الصحراء) نشرت في مجلة الأقلام العراقية 1983

و(فردوس مغلق) نشرت في مجلة الطليعة الأدبية عام 1984

- نشر الكاتب عشرات القصص ومئات المقالات والبحوث في الآداب والفنون والفكر في الصحف والمجلات العراقية والعربية.
- قصصه تدرس في كلية الآداب جامعة قار يونس الليبية.
- ترجمت قصصه ومقالاته إلى الانجليزية والروسية والفرنسية .

· صارت روايته الليل والنهار المنشورة عام 1985 مبحثا لرسالة الدكتوراه في الآداب في جامعة المستنصرية العراقية عام 1987

· صارت روايته عراقيون أجناب الصادرة عام 1999 مبحثا لرسالة دكتوراه في الآداب جامعة المستنصرية العراقية عام 2004

* ولد الكاتب في البصرة عام 1953

*نشر أولى قصصه ومقالاته عام 1973 وهو لا يزال طالبا في الثانوية.

* فازت قصته الطير بالجائزة الأولى بمسابقة ثانويات العراق العام 1973

* أكمل دراسته الجامعية في جامعة البصرة 1974- 1978 – وحصل على بكالوريوس من كلية الهندسة عام 1978

* أكمل عدة دورات في الاعلام والصحافة ووسائل الطباعة والمنشورات.. في البصرة وبغداد 1980- 1984

* عضو اتحاد الأدباء العراقي منذ عام 1984

*عضو نقابة الصحفيين العراقيين منذ عام 1987

* غادر العراق عام 1995 وتنقل في عدة دول عربية من بينها الاردن وليبيا وتونس ومصر وأقام في المملكة المغربية منذ عام 1997

* عمل مراسلا ثقافيا لجريدة الزمان الدولية ولمجلة الزمان – مقرها في بريطانيا للفترة: 1997-2014

* وعمل مراسلاً ثقافياً لجريدة العرب الدولية 2015 ولايزال.

* عمل مراسلا ثقافيا للعديد من الجرائد العراقية كالأهالي الأسبوعية والمنارة النصف أسبوعية ومجلة السينما، وجريدة الصباح، وجريدة العدالة، خلال الفترة: 2005-2011

* الكاتب العام لجمعية الرافدين العراقية في المغرب خلال الفترة: 2005- 2011

*رئيس فخري للعديد من النوادي الثقافية في المغرب منها منتدى 2100 في الدار البيضاء منذ عام 1998.

* إيميل الكاتب:
faisal53hasan@gmail.com